الباب الرابع

ظهرت الكانبرا ... فانكشف المستور

الفصل السابع : الضربة التى وحّدت الجبهة

الفصل الثامن : وسقط القطاع كالثمرة الناضجة

الفصل التاسع : الجحيم فى الجفجافة

الفصل العاشر : مدق المهالك ومعركة الشرم

الفصل السابع

الضربة التى وحـــدت الجبهة

مقدمـة - الـــضربـة الجويـة - اكـتشاف المؤامرة - توحيد الجبهة غرب القناة - إعـادة تنظيم الأوضـاع لتحقيق الاتـزان الاستراتيـجى للدفـاع - التعليق.

مقدمة :

فى السابعة مساء ٣١ أكتوبر ، وبعد انقضاء ٢٥ ساعة على صدور الإنذار الأنجلوفرنسى بوقف كافة الأعمـال القتالية وانسحاب القوات المـصرية والإسرائيلية إلى مســافة عشرة أميال غرب وشرق الـقناة ، وبعـد أن مرّت ١٣ ساعة عـلى انتهـاء الزمن ، الذى حـدده الإنذار للانصياع لـه ، بدأت الطائرات الأنجلوفرنسـية ضربتها الجوية المركزة ضد مـطارات وعناصر الدفاع الجوى المصرية[١] .

وكان الاتفاق طبقاً لبروتوكول سيفر ، يقضى بأن تتم هذه الضربة الجوية فى الصباح ، إلا أن مارشال الجو دنيس بارنيت استصوب تاجيلـها للمساء ؛ حيث لا تملك مصر طائرات مقاتله لـيلية تستطيع اعـتراض الطائرات الأنجلوفرنـسية . وقد صدق الجنرال تشارلـز كيتلى القائد العام لقوات الغزو على هذا التأجيل ، الذى ملأ صدر بن جوريون بالشك بأن حليفيه قد نكصا عن أداء دورهما المتفق عليه فى بروتوكول سيفر طبقاً لعهود التواطؤ ، فأصدر أمره إلـى الجـنرال ديّان فى صباح ٣١ اكتوبر بوقف عمـلية قادش لغزو سيناء ، وسـحب جميع القوات الإسرائيلية داخل الحدود [٢] .

إلا أن ديّان كان اكثر ثقه من رئـيسه فى صدق عزيمة الحليفتين على الـقيام بدورهما فى

العدوان الثلاثى لما لهما من مصالح ذاتيه فيه ، ولهذا راح يماطل ويؤجل حتى وقعت الضربة الجوية الأنجلوفرنسية ، فاطلق العنان بعدها لقوات إسرائيل لتواصل الزحف ، ثم راح يستحث الألوف سمحونى ومرؤوسيه على مداومة الهجوم بكل شدّة ، وعلى جميع المحاور لدحر القوات المصرية ، ولسرعة الاستيلاء على شبه الجزيرة حتى مشارف قناة السويس غرباً ورأس محمد جنوباً [٣] .

ولقد ترتب على هذة الضربة الجوية الأنجلوفرنسية أن بدأت مرحلة جديدة من حرب العدوان الثلاثى على مصر ، تحول فيها اهتمام الزعامة السياسية والقيادة العسكرية المصرية من التركيز على الأعمال القتالية فى سيناء إلى الاستعداد لمواجهة الغزو البحرى الأنجلوفرنسى الذى لم يعد الرئيس عبدالناصر يشك فى قرب وقوعه[٤] .

وقد اختلف تأثير الضربة الجوية الأنجلوفرنسية على تصرفات وردود افعال العالم عامة ، والعرب ودول الحياد الإيجابى وعدم الانحياز على وجه الخصوص ؛ إذ ثار الضمير العالمى على تلك الدولتين الكبيرتين اللتين هبطتا إلى مستوى الاعتداء على دولة صغيرة لم ترتكب ما يبرر العدوان عليها ، عندما استعادت قناتها من يد الإمبريالية التى استغلتها لصالحها طيلة قرن من الزمان وحرمت مالكها الأصلى من ثمراتها وحقوق ملكيتها ؛ حتى صارت الشركة الفرنسيه التى تديرها دولة داخل الدولة . أما أستراليا ونيوزلنده وجنوب أفريقيا فكانت تصرفاتها فى الأمم المتحدة تكشف عن موافقتها على ذلك العدوان[٥] .

كما اختلفت الآراء أيضاً إزاء الإجراء الأمثل لمواجهة العدوان الأنجلوفرنسى ، بعد أن كشف عن أنيابه ، فكانت الغالبية العظمى من المصريين وراء الرئيس عبدالناصر الذى أعلن عزمه على الصمود والقتال حتى النهاية ، على نحو ما ظهر جلياً فى خطابه يوم الجمعة ٢ نوفمبر ١٩٥٦ من فوق منبر الجامع الأزهر الشريف ، عندما ردد وراءه شعب مصر عن بكرة أبيه القول : " لسوف نحارب وننتصر ونبنى بلداً وتاريخاً ومستقبلاً ، ولن نستسلم أبداً وفى صدورنا نفس يتردد "[٦] .

إلا أن القلّة الضئيلة كان لها رأى مخالف ؛ إذ اجتمع وفد من قدامى الساسة برئاسة وزير الداخلية السابق سليمان حافظ بحديقة مجلس الوزراء ؛ لينصحوا الرئيس عبدالناصر بالتسليم فرفض الاجتماع بهم وأنذرهم بالقبض عليهم إن لم يسارعوا بالانصراف فوراً[٧] .

وكان مثيراً للدهشة والأسى أن يتردد نفس الصدى بين فردين من مجلس قيادة الثورة المنحل ، بعد أن هرع أعضاؤه إلى مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة ، عقب وقوع الضربة الجوية الأنجلوفرنسية ؛ حيث نصح الرائد صلاح سالم بأن يقوم الحاضرون بتسليم أنفسهم لسفير المملكة المتحدة بمصر ، السير همفرى تريفليان ، وأيّده اللواء محمد عبد الحكيم على عامر ؛ خشية أن يتعرض الشعب للأهوال والكوارث ، التى سوف يأتى بها الغزو البحرى الأنجلوفرنسى المتوقع ، إلا أن باقى الموجودين أعربوا عن اعتراضهم الشديد على تلك الروح الانهزامية التى لا مبرر لها ، وأكدوا أنه من الأشرف للجميع أن يبذلوا أرواحهم فى مقاومة المعتدين ، عن أن يلقوا سلاحهم ساعة الخطر ؛ فيجلبوا لأنفسهم الخزى والعار الذى يبقى أبد الدهر [٨] .

الضربة الجوية :

وجاءت غالبية الطائرات المغيرة من السلاح الجوى البريطانى ، تصحبها بعض الطائرات الفرنسية بما بلغ جملته ١٩ سرباً ، فركزت القاذفات القادمة من مطارات مالطه وقبرص موجتها الأولى على مطارات غرب القاهرة وأنشاص و « أبوصوير » وكبريت . وقبل أن ينتصف الليل كان الماريشال بارنيت قد أتم دفع ثلاث موجات من القاذفات ، ألقت قنابلها من الأنواع الطرقية والتأخير الزمنى التى ظلت تتفجّر تباعاً طول الليل [١٠] .

وقد استعانت طائرات الفاليانت ذات المحركات الأربعة القادمة من مالطة ، والكانبرا ذات المحركين القادمة من قبرص بالمشاعل المزودة بالمظلات التى ألقتها طائرات تحديد الممرات الجوية ؛ لتهيئ لتلك القاذفات فرصاً أفضل لإحكام تصويب قنابلها على أهدافها المنتخبة .

وعندما انبلج ضوء الصباح ، أقلعت الطائرات من فوق سطح الحاملات آلبيون وبولوارك ، وآرك رويال ، تصحبها المقاتلات القادمة من مطارات قبرص لحراستها ، وبمجرد أن وصلت فوق المطارات المصرية راحت تقذف الطائرات الموجودة حول الممرات بصواريخها ومدافعها وقنابلها ، والتى لم يكن قائد القوات الجوية والدفاع الجوى قد بذل الجهد الضرورى لوقايتها أو نشرها [١٢] .

ثم استمرت موجات الضربة الجوية تغير على الأهداف المصرية طيلة يومى ٢ ، ٣ نوفمبر ، بينما تعرضت قوات سيناء وهى ترتد نحو القناة لغارات جوية من الطائرات

الفرنسية المقاتلة القاذفة المتمركزة فى إسرائيل ، علاوة على المقاتلات القاذفة الإسرائيلية ، التى راحت تتعقب الأرتال المتحركة على طرق ومحاور سيناء ، وتمطرها بالقنابل وبخزانات النابالم التى أوقعت بها خسائر شديدة جداً [١٣] .

ونجحت إحدى الغارات فى تدمير هوائيات الإرسال الرئيسية بأبى زعبل ، قبل أن يلقى الرئيس عبدالناصر خطبته من فوق منبر الجامع الأزهر بساعة واحدة ظهر يوم الجمعة ٢ نوفمبر ، فتوقفت الإذاعة المصرية عن الإرسال ، لتنطلق إذاعة دمشق على الفور بالنداء " هنا القاهرة " على نحو ما سبق ذكره .

وبانتهاء يوم ٣ نوفمبر ، كتب الجنرال كيتلى فى سجل الحرب يقول إن مهمة شلّ وتدمير القوات الجوية المصرية قد تمت بنجاح . وقد صدرت التوجيهات للمارشال الجوى بارنيت بتحويل غالبية المجهود الجوى الأنجلوفرنسى من ضرب المطارات وعناصر الدفاع الجوى المصرى إلى الأهداف العسكرية الأخرى [١٤] .

وكان اللواء محمد صدقى محمود قائد القوات الجوية قد أخطر القائد العام - فى الساعة السادسة صباح ١ نوفمبر - أن قواته لم تعد قادرة على مواصلة القتال ضد القوات الإسرائيلية فى سيناء ؛ نظراً لتدمير المطارات خلال الضربة الجوية الأنجلوفرنسية ، فضلاً عن وجود عدد كبير من القنابل الزمنية التى تعوق جماعات الاصلاح والنجدة عن العمل [١٥] .

وفى ضوء هذا الموقف ، أصدر القائد العام أمره فى السادسة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً بوقف نشاط القوات الجوية المصرية ، وسرعة إخلاء المطارات ، ونقل ما بها من طائرات سليمة خارج الجمهورية ، مع إعطاء الأسبقية لإخلاء قاذفات القنابل الاليوشن - ٢٨ ومطارات منطقة القناة[١٦] .

وقد أرسلت الاليوشن إلى مطار الأقصر ، والميج إلى عدة مطارات خلفية . ولم تكن نتائج الضرب الليلى حاسمه وإن نجح فى تعطيل العمل بأكثر المطارات ، إلاّ أن نسبة إصابة الطائرات حتى بزوغ الشمس كانت ضئيلة [١٧] .

ولكن المقاتلات القاذفة الأنجلوفرنسية سرعان ما جاءت لتضرب مطارات الماظه و«ابوصوير» وكبريت وفايد وغرب القاهرة وأنشاص ، وبلبيس المخصص للكلية الجوية ، ثم استمرت الطائرات تغير على تلك الأهداف طول النهار ، وبفواصل زمنية قصيرة ،

وقد تعرّض بعض تلك المطارات لأكثر من ٥٠ غارة فى ذلك النهار ، أصابت غالبية الطائرات الرابضة فيه [١٨] .

وفى نفس هذا اليوم ، هاجمت المقاتلات القاذفة الفرنسية بعض قطع الأسطول المصرى خارج ميناء الإسكندرية ، وفشلت فى إصابتها رغم استمرار قصفها لأكثر من ثلاث ساعات متواصلة [١٩] .

كما قامت بمهاجمة ناقلة الجند عكا داخل البحيرات المرة ، وفشلت فى اصابتها أيضاً [٢٠] .

وخلال ليلة ١ / ٢ نوفمبر عادت الكانبرا والفاليانت لمهاجمة القواعد الجوية والمطارات مرّة اخرى ؛ فقصفت مطار الأقصر ، دون أن تنجح فى إصابة القاذفات الاليوشن - ٢٨ الموجودة به [٢١] .

إلاّ أن غارات الصباح التالى أوقعت خسائر كبيرة فى تلك الطائرات ، وجعلت القواعد الجوية والمطارات غير صالحة للعمل لفترة طويلة من الزمن [٢٢] .

وحتى تلك اللحظة لم يكن العدو قد اهتدى بعد إلى مكان القاذفات الاليوشن التى كانت تستعد للإقلاع من مطار الأقصر للخارج . ولكن ضعف الخدمة الأرضية ونقص الطيارين عطّل إقلاعها حتى صباح يوم ٣ نوفمبر ، عندما اكتشفتها الطائرات المعادية أخيراً فضربت القسم الأخير منها ، بينما كان ينتظر عودة الطيارين الذين أقلعوا بالقسم الأول إلى مطارات المملكة العربية السعودية فحطمت ١٨ طائرة اليوشن ، كانت تقف قرب الممر على أهبة الاستعداد للإقلاع [٢٣] .

ثم تحول المجهود الجوى الأنجلوفرنسى إلى ضرب أهداف جديده ، فركز الضرب اعتباراً من ظهر يوم ٣ نوفمبر على معسكرات القوات المسلحة فى الهاكستب والعباسية والماظه وغرب القاهرة ، رغم أنها كانت خالية من الوحدات المحاربة [٢٤] .

وقرب العصر قصفت الطائرات عقدة المواصلات الحديدية فى قرية نفيشه غرب الإسماعيلية لتشل حركة السكة الحديد فى منطقة القناة . وخلال نفس اليوم ، نشطت طائرات الاستطلاع البريطانية فى التقاط الصور الجوية لرأس شاطئ الغزو المنتخب فى

بورسعيد ، كما بدأت منذ الصباح الباكر تركيز الغارات فوق المدينة ومرابض المدفعية الساحلية والمضادة للطائرات التى تدافع عنها[٢٥] .

وبانتهاء مرحلة التمهيد الجوى للغزو البحرى الأنجلوفرنسى مساء ٣ نوفمبر ، كتب الجنرال كيتلى فى سجل الحرب " إن مهمة شل وتدمير القوات الجويه المصريه قد تمت بنجاح ، ثم أصدر أوامره لمارشال الجو بارنيت لتحويل مجهوده الجوى من ضرب المطارات وعناصر الدفاع الجوى إلى الأهداف العسكرية الأخرى "[٢٦] .

وظل الماريشال بارنيت يطلق قاذفاته لضرب عقد المواصلات الحديدية والطرق البرية ، وأرتال المدرعات والمركبات ، ومرابض نيران المدفعيه ، والمعسكرات حول القاهرة ، ومنطقة القناة . وعندما أصدرت رئاسة الوزارة البريطانية أمرها بالاقتصار على القنابل زنة ٢٥٠ رطلاً فقط لتجنّب ايقاع الضرر الشديد بالمدنيين المصريين ، انصاع بارنيت على مضض ، بينما اعترض الجنرال هيوستوكويل القائد العام لقوات الغزو البرى ، قائلاً . . . " انه ليس هناك مجال لمثل تلك العواطف ، عندما تكون رقبة المرء معرضة للقطع "[٢٧] .

وكانت الموجة الأخيرة التى أطلقها بارنيت فى نهاية الضربة الجوية الأنجلوفرنسية ضد الإسكندرية لأغراض الخداع وجذب أنظار القيادة المصرية بعيداً عن شاطئ الغزو المنتخب ببورسعيد إلى منطقة الإسكندرية التى هاجمتها الطائرات الأنجلوفرنسية بشدة ليلة ٣ نوفمبر ؛ لتحقيق ذلك الغرض الخداعى المحض [٢٨] .

وقد زعم ماريشال الجو بارنيت أنه دمر ٢٦٠ طائرة مصرية وهى جاثمة على أرض المطار ، وهو عدد يزيد عما كانت تملكه مصر فعلاً ، علاوة على هو معروف من نجاح ما لايقل عن ٤٠ طائره فى الوصول سالمة إلى بعض مطارات الدول العربية الصديقة[٢٩] .

اكتشاف المؤامرة[٣٠]

صرح الرئيس عبدالناصر بعد العدوان الثلاثى بشهر أن الإنذار الأنجلوفرنسى ، وإن كان قد أثار دهشته وقلقه الشديد ، إلا أن بدء الضربة الجوية هى التى أقنعته بالتواطؤ الإسرائيلى الأنجلوفرنسى ؛ للقضاء على جيش مصر داخل الفخ الذى نصبوه له فى أعماق سيناء توطئة لإعادة احتلال البلاد ، بعد أن تكون قد فقدت الدرع الذى يحميها[٣١] .

ولهذا فقد عجّل بالتوجّه إلى مبنى القيادة العامة الذى وصله فى الساعة الثامنة مساء ٣١

أكتوبر ؛ ليجد القادة مجتمعين فى مؤتمر مشحون بالانفعالات ، وشرح لهم الرئيس عبدالناصر وجهة نظره ، التى كانت من الوضوح بما أقنع الجميع ؛ خاصة وقد كانت أصوات الانفجارات تدوى فى الآذان ، وضجيج الطائرات النفاثة يهز حوائط المبنى[٣٢] .

وتلخّص رأى الرئيس عبدالناصر الذى ذكره لأعضاء المؤتمر فى الآتى :[٣٣]

١ - إن ثمة أموراً عسكرية غير عادية تجرى فى مسرح الحرب ، منذ صباح ٣٠ أكتوبر ، ترجّح الظن بأن إسرائيل ليست وحدها فى هذا العدوان .

٢ - إن أروقة مجلس الأمن والمجالس التشريعية بالمملكة المتحدة وفرنسا ، تشهد أنشطة ديبلوماسية غريبة تثير شكوك المتتبعين لها بشدة .

٣ - إن بعض القطع البحرية للأسطولين البريطانى والفرنسى قد اتخذت أوضاعاً على مشارف المياه الإقليمية لمصر ، تفصح عن قرب فرض حصار بحرى على سواحلها .

٤ - إن الإنذار الأنجلوفرنسى الذى صدر مساء الأمس يجافى أبسط قواعد المنطق السليم ، بدعوته إسرائيل المعتدية إلى التقدم نيف ومائتى كيلومترًا نحو القناه ، تحت زعم مفضوح بالرغبة فى حماية القناة من أخطار الصراع المسلح الدائر على مشارفها . ثم يزداد الإنذار عربدة بالتهديد بضرب مصر - المعتدى عليها - واحتلال جزء من أرضها - منطقة قناة السويس - حتى ولو قبلت ذلك الإنذار الجائر على حقوقها وكرامتها .

٥ - إن الأجهزة الأنجلوفرنسية جنّدت جهدها لعرقلة أعمال مجلس الأمن ، الذى اجتمع بناءً على طلب مصر ؛ للنظر فى أمر العدوان الإسرائيلى عليها . وقد أظهرت تلك الأجهزة انحيازاً كاملاً بجانب إسرائيل ، وصل إلى حد استخدام حق الفيتو مرتين متتاليتين ؛ لشل المساعى الحميدة لمجلس الأمن لوقف الاعتداء الإسرائيلى السافر على مصر .

٦ - إن قيام المدمرة الفرنسية كيرسان باعتراض الفرقاطه إبراهيم الأول فجر اليوم فى عرض البحر والضرب عليها بالنيران ، دون أى استفزاز من جانب الفرقاطة ، يكشف عن وجود نوايا خبيثة فى جعبة فرنسا ضد مصر .

٧ - إن الحملات الدعائية الظالمة التى تطلقها أجهزة الإعلام الأنجلوفرنسية ضد مصر قد تجاوزت الحدود .

٨ - إن أجهزة المخابرات المصرية ومصادر المعلومات الدبلوماسية بالخارج ، ترجّح اشتراك المملكة المتحدة وفرنسا فى عمل عدوانى تبدأه إسرائيل ضد مصر كذريعة للتدخُّل الأنجلوفرنسى .

وأجمعت الآراء على أن الموقف لم يعد يجيز استمرار دفع القوات المسلحة داخل اعماق سيناء ؛ حتى لا يحدث فراغ استراتيجى فى قلب الدولة ، كما وجدوا أيضًا أن الوضع العسكرى فى مسرح الحرب أصبح يستلزم سرعة إجراء تغيير حاسم لاستعادة الاتزان الإستراتيجى ، وتأمين منطقة قناة السويس ضد احتمالات الغزو ، لاسيما وأن تلك المنطقة لا تملك من القوات ما يكفى لمقابلة عملية حربية معادية كبرى .

وكان الحل العاجل هو نقل الجهد الرئيسى للقوات المسلحة إلى غرب القناة ؛ لتوحيد الجبهة المصرية هناك [٣٤] .

وكان ذلك هو نفس ما انتهى إليه تقدير الموقف الذى قام به أحد أفضل المفكرين العسكريين ، وهو العميد أركان حرب محمد حافظ إسماعيل ، رئيس أركان القيادة العربية المشتركة ، ومدير مكتب القائد العام للقوات المسلحة ، والذى ختمه بالخلاصة التالية[٣٥]

١ - إن الضربة الجوية الأنجلوفرنسية تهدف إلى انتزاع السيادة الجوية على سماء مصر .

٢ - إن العدوان الإسرائيلى يستهدف استدراج القوات المصرية الرئيسية داخل أعماق سيناء .

٣ - إن غزواً بحرياً أنجلوفرنسياً سوف ينزل على شاطئ بورسعيد ، ليجتاح ضفتى قناة السويس ، ويقطع جيش مصر فى سيناء عن قواعده بالوادى .

٤ - إن الموقف أصبح يتطلب إجراء سريعاً لنقل الجهد الرئيسى للقوات المسلحة إلى جبهة القناة .

توحيد الجبهة غرب القناة[٣٦]

وفى الساعة العاشرة مساء ٣١ أكتوبر انتهى اجتماع الرئيس عبد الناصر بالقادة العسكريين ، وأصدرت القيادة العامة توجيهات عمليات ، تلخصت فى الآتى :

١ - نقل المجهود الرئيسى للقوات المسلحة إلى غرب قناة السويس ، بهدف التمسك بمنطقة بورسعيد - الإسماعيلية - السويس ، على أن يتم ذلك قبل اول ضوء ٢ نوفمبر .

٢ - تخلى القوات المسلحة شبة جزيرة سيناء إخلاءً تاماً ، وتعود إلى الضفة الغربية للقناه ، كما تتخذ الإجراءات الفورية لسحب القوات التى تدافع عن قطاع غزه ورفح والعريش وشرم الشيخ والقوات المدرعة ، واحتياطيات القيادة الشرقية .

٣ - تنتقل الفرقة ٤ المدرعة والمجموعة الثانية المدرعة إلى غرب القناة ؛ لتوضع فى الاحتياطى الاستراتيجى للقوات المسلحة .

٤ - تقتصر أعمال الدفاع الجوى على المدفعية المضادة للطائرات وتدابير الدفاع الجوى السلبى .

٥ - تنقل الطائرات إلى المطارات الجنوبية ؛ توطئة لإخلائها إلى قواعد جوية صديقة خارج الجمهورية .

٦ - تقتصر أعمال القوات البحرية على تنظيم الدفاع الساحلى فى البحر المتوسط وخليج السويس ، مع القيام بدوريات استطلاع بحرى داخل المياه الإقليمية .

٧ - تنظّم قوى النضال الشعبى المسلّح تحت إشراف الجبهات والمناطق العسكرية ، وتركّز جهودها للدفاع عن المدن والقرى لآخر طلقة .

وقد بدأ تنفيذ تلك التعليمات ، حيث راحت قوات سيناء تتخلّص من القتال تحت أشد الظروف المعاكسة ، وترتد على طريقين معرضين تماماً لغارات العدو ، لاتتعدى سعة كل منها الرتل أو الرتلين على الأكثر ، وتحف بهما الكثبان والرمال الناعمة التى لا تصلح للسير عبرها ، وتكثر بالطريق المضايق وأعناق الزجاجة التى تعتبر أرض قتل مثالية لطائرات العدو ، فإذا ما نجحت فى الوصول إلى القناة فلن تجد سوى كوبرى واحد وبعض المعديات القليلة ؛ لتعبر إلى الضفة الغربية ، وهى شديدة التعرض للغرق داخل القناة بفعل قنابل العدو .

وكانت أبرز نقاط الضعف فى عملية إخلاء شبه جزيرة سيناء من القوات المسلحة الآتى : (٣٧)

١ - عدم توفر جماعات النسف المدربة على تدمير المستودعات الرئيسية فى مناطق الميدان والبردويل ووادى غـزال ؛ مما تركها لقـمة سـائغـة للعدو بما فيها من مخزونات كثيرة .

٢ - ضعـف ضبط وربط التـحركات على طـريقى الانسحـاب وخاصة عند المـضايق والمعابر ؛ مما كان له تـأثير شديد على تدفق التحركات غـرباً ، وتسبب فى وقوع خسائر كثيرة فى الأفراد والأسلحة والمعدات دون داعٍ .

٣ - إهمال بعض القادة تنظيم انسحاب قواتهم ؛ طبقاً للأسلوب المعتمد ، وترك القليل منهم وحداته ، وانطلق نحو الإسماعيلـية أو القاهرة منفرداً ، أو مع بطانته الأثيرة لديه ؛ مما ترك الجنود فى حالة ارتباك وشعور بالضياع .

٤ - عدم استغلال ساعات الـظلام على الوجه الاكمل فى تنفيـذ تحركات الإنسحاب ؛ بهدف الحد من الخسائر المترتبة على الغارات الجوية إلى أقل قدر ممكن ، وكان كل ذلك بمثابـة الجرثومة التى ظـل يستفحل ضـررها ، حتى صارت وباءً فـى جولة صيف ١٩٦٧ ، قضى على الأخضر واليابس .

أمَّا حاميـات قطاع غزة ، ومنـطقة خليـج العقبة ، فقـد حالت الاعتبـارت السياسيـة والطبوغرافيـة دون سحبهـا ؛ فظلت فى أماكنهـا حتى وقـع أغلبهـا فـى الأسـر .

إعادة تنظيم الأوضاع لتحقيق الاتزان الاستراتيجى للدفاع[٣٨]

استعداداً لانتقال قوات سـيناء إلى غرب القناة ، أعيد تقسيم القـطاعات الدفاعية داخل المثلث الحيوى بورسعيد - السويس - العبـاسة ، وجهِّزت الخطط لاحتلال الدفاعات لمقابلة الغزو البحرى المنتظر ، والتحمت قوى النـضال الوطنى بقوات الجيش ، وأخذت منطقة قناة السويس تتطور بسرعة كبيرة ، بهدف تحقيق الاتزان الإستراتيجى للدفاع عنها .

وفى الساعة السادسـة من صباح يوم ٤ نوفمـبر ، استقرت أوضاع الجبهـة الجديدة على امتداد قناة السويس ، على الوضع التالى :

١ - تركيز الـدفاع عن المدن والهيئـات الحيوية وليس فـى العراء ، مع توفير الـكفايه الذاتية القتـالية والإدارية لكل مدينة أو هيـئة حيوية ؛ لتصبح جزيـره دفاعية قادرة على المقاومـة لمدة طويلة ، مع تزويدها بعـناصر هجومية ، تستطـيع شن الأعمال الهجومية المفاجئة ليلاً لشغل العدو، وإيقاع أكبر قدر من الخسائر بقواته ومعداته .

٢ - وقد قسمت جبهة القناة إلى قطاعين رئيسيين ، اشتمل الشمالى منهما على المنطقة الممتدة من بورسعيد حتى قرية فايد (داخل) ، بينما اشتمل القطاع الجنوبى على المنطقة من فايد (خارج) حتى بير عديب (داخل) .

٣ - كما جهّز قطاع فرعى فى منطقة العباسة بمؤخرة الجبهة ؛ لمنع العدو من التقدم نحو القاهرة ، والعمل كقاعدة للدوريات بعيدة المدى فى اتجاه الإسماعيلية أو المطرية حسبما تسنح الفرصة .

٤ - واحتشدت حول القاهرة الفرقة الرابعة المدرعة ، والفرقتان الثانية والثالثة المشاه ، ووحدات من جيش التحرير الوطنى ، وقوات النضال الشعبى .

٥ - وانتقلت القيادة الشرقية من الإسماعيلية إلى الزقازيق خلف خط الدفاع الثانى ، كما أخليت القاعدة البريطانية بالتل الكبير من الأسلحة والمعدات ، ليتسلح بها جنود القوات المسلحة وقوى النضال الشعبى؛ لمقابلة العدوان ودحره بأسلحته [٣٩].

التعليق :

وقع فى ليلة الأحداث الجسيمة هذه حدثان كبيران ، هما الضربة الجوية الأنجلوفرنسية وقرار توحيد الجبهة المصرية غرب القناة ، وإذا كان الحدث الأول قد تأخر كثيراً عن موعده المعتاد الذى يستهل به المهاجم هجومه ، قبل أن يدفع قواته البرية إلى المعركة ، وذلك بسبب إصرار الزعامة السياسية الأنجلوفرنسية على إخفاء التواطؤ والامتناع عن المشاركة السافرة فى العدوان ؛ حتى تخلق القيادة الإسرائيلية له الذريعة . . فإن الحدث الثانى - توحيد الجبهة - جاء فى وقته تماماً بفضل نجاح الزعامة المصرية فى كشف التواطؤ بمجرد سقوط القذيفة الأولى من الطائرات الأنجلوفرنسية على المطارات ، ومبادرتها إلى الاجتماع الفورى بالقيادة العسكرية لإصدار القرارات الصحيحة لمواجهة الموقف .

والواقع أن قرار توحيد الجبهة غرب القناة أنقذ قوات سيناء من موقف بالغ الخطر ، فيما لو استمرت فى مواقعها حتى نزول قوات الغزو الأنجلوفرنسى ، وقطعها خط الرجعة على تلك القوات على امتداد قناة السويس ؛ الأمر الذى لو تحقق كما كانت تأمل خطة العدوان لأصبحت عاصمة الدولة مفتوحة أمام قوات الغزو لتحتلها وقتما تشاء ، فضلاً عما كان سوف يترتب على انقطاع قوات سيناء عن قواعدها بالدلتا من أخطار جسيمة .

إلا أن سحب قوات سيناء وقطاع غزة لم يكن قراراً هيناً على الزعامة السياسية أو القيادة العسكرية ، رغم ضرورته وظروفه الملحة :

١ - ففى المحيط الدولى وعلى الصعيد العربى ، كان قراراً شاقاً على رئيس الدولة أن يتخلى عن قطعة من أرض الوطن ، ويترك قطاعاً عزيزاً على قلب كل عربى من تراب فلسطين .

٢ - وفى الإطار العسكرى لم يكن الانسحاب سهلاً من سيناء ، والقوات فى تلاحم مباشر مع العدو الذى يملك السيادة الجوية الخالصة فى سماء المسرح ؛ حيث تضطر القوات المنسحبة إلى الالتزام بالطرق القليلة وعبور المضايق الكثيرة ، التى تعتبر أرض قتل مثالية ، تستطيع قوات العدو أن تنزل بها أفدح الخسائر .

وزاد من خطورة مشكلة الإنسحاب ما عمدت إليه قلة من قادة الوحدات بترك جنودهم والتعجيل بالعودة إلى الإسماعيلية والقاهرة ، على خلاف ما يقضى به العرف العسكرى بأن يلتصق القادة والضباط بجنودهم وقت الشدائد ، وأن يكونوا المثل الطيب لهم فى ضبط النفس ، ومواجهة الخطر بقلب مؤمن .

ولا تكتمل الصورة دون إلقاء الضوء على منطقة بورسعيد ؛ حيث توقع الجميع حدوث الغزو البحرى الذى عندما وقع فعلاً كشف عن أن قوات الحامية التى حشدت لمواجهته كانت صغيرة الحجم قليلة الكفاءة القتالية ، فضلاً عن أن التجهيزات الهندسية والموانع الشاطئية كادت أن تكون معدومة ، كما لم تجهَّز المدينة لاستمرار الصمود إذا ما نجح العدو فى احتلال مرافقها الحيوية ، رغم أنها كانت بالغة التعرُّض للاقتحام الجوى الرأسى أو التدمير بسفن أساطيل الغزو وطائراته ، على نحو ما كشفت عنه الأحداث .

توثيق الفصل السابع

(١) Op.Cit.: The Suez Expedition 1956, pp. 95–96.

وأيضًا : Op.Cit.: Elusive Victory, pp. 180.

(٢) المصدر السابق : يوميات معركة سيناء ، ص ١١٧ .

وأيضًا : Op.Cit.: Elusive Victory, pp. 180.

وأيضًا : Op.Cit.: Warriors At Suez, p. 382.

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢١ وأيضاً ١٣٦ ، ١٣٧ .

وأيضًا : Ibid, p. 179.

(٤) المصدر السابق : حرب العدوان الثلاثى على مصر فى خريف ١٩٥٦ ، ص ٢٢ - ٢٨ .

(٥) فوزى ، الدكتور محمود : حرب السويس ١٩٥٦ ، (القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٧) ، ص ١٠٤-١٠٧ .

وأيضًا : المصدر السابق : ملفات السويس ، ص ٥٤٦-٥٤٧ .

وأيضًا : Op.Cit.: The Twice Fought War, pp. 564.

وأيضًا : Op.Cit.: The Story of Suez, pp. 131–134.

(٦) جريدة الأهرام القاهرية ، عدد يوم السبت ٣ نوفمبر ١٩٥٦ ، خطبة الرئيس عبد الناصر بالأزهر الشريف .

وأيضًا : مجموعة خطب الرئيس عبد الناصر ، خطاب يوم ٢ نوفمبر ١٩٥٦ .

(٧) المصدر السابق : ملفات السويس ، ص ٥٤٥ .

وأيضًا : المصدر السابق : مذكرات البغدادى (الجزء الأول) ، ص ٣٤٥-٣٤٧ .

وأيضًا : حمروش ، أحمد : مصر والعسكريون - المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت ، الجزء الثانى ١٩٧٥) ، ص ١٠٦ .

(٨) المصدر السابق : مذكرات البغدادى ، ص ٣٤٤-٣٤٥ .

(٩) المصدر السابق : حرب العدوان الثلاثى على مصر فى خريف ١٩٥٦ ، الجزء الثانى ، المجلد الثانى ، ١١١-١١٣ .

وأيضًا : Op.Cit.: The Twice Fought War, pp. 525–527.

(١٠) المصدر نفسه - الصفحات نفسها .

Ibid, Same, Pages.

وأيضًا : Op.Cit.: Warriors At Suez, p. 393.

(١١) المصدر نفسه - الصفحات نفسها .

Ibid, Same, Pages.

Ibid, Same, Pages.

(١٢) المصدر السابق : محفوظات إدارة القضاء العسكرى ، قضية الطيران ، مسلسل ١٢ ، الملف الفرعى ٢٥١/١/٤٩/٦٨ .

(١٣) المصدر السابق : حرب العدوان الثلاثى على مصر فى خريف ١٩٥٦ ، الجزء الثانى ، المجلد الثانى ، ١١١ .

وأيضًا : Op.Cit.: The Twice Fought War, pp. 527–530.

وأيضًا : Op.Cit.: Elusive Victory, pp. 180.

(١٤) Op.Cit.: The Twice Fought War, pp. 530.

(١٥) المصدر السابق : حرب العدوان الثلاثى على مصر فى خريف ١٩٥٦ ، الجزء الثانى ، المجلد الثانى ، ١١١ .

(١٦) المصدر نفسه - ص ١١١-١١٢ .

(١٧) المصدر نفسه - ص ١١٢ .

(١٨) المصدر نفسه - الصفحات نفسها .

وأيضًا : Op.Cit.: The Twice Fought War, pp. 528–530.

(١٩) المصدر نفسه - ص ١١٢ .

(٢٠) المصدر نفسه - الصفحات نفسها .

وأيضًا : Op.Cit.: The Twice Fought War, pp. 528.

(٢١) المصدر نفسه - الصفحات نفسها .

(٢٢) المصدر نفسه - الصفحات نفسها .

وأيضًا : Op.Cit.: The Twice Fought War, pp. 528.

(٢٣) المصدر نفسه - ص ١١٣ .

(٢٤) المصدر نفسه - الصفحات نفسها .

(٢٥) المصدر نفسه - الصفحات نفسها .

(٢٦) Op.Cit.: The Twice Fought War, pp. 528.

(٢٧) Ibid, p. 530.

(٢٨) Ibid, p. 530.

(٢٩) المصدر السابق : حرب العدوان الثلاثى على مصر فى خريف ١٩٥٦ ، الجزء الثانى ، المجلد الثانى ، ١١٣ .

(٣٠) المصدر السابق : ملفات السويس ، ص ٥٣٣ .

(٣١) Op.Cit.: The Twice Fought War, pp. 531.

(٣٢) المصدر السابق : ملفات السويس ، ص ٥٣٤ .

وأيضًا : Op.Cit.: The Twice Fought War, pp. 531.

(٣٣) نفس المصدر : ص ٥٣٤-٥٣٥ .

Ibid, Same, Pages.

(٣٤) المصدر السابق : حرب العدوان الثلاثى على مصر فى خريف ١٩٥٦ ، توحيد الجبهة المصرية غرب القناة ، الجزء الثانى ، المجلد الأول ، ص ٢٨-٢٩ (نص القرار موجود فى مجموعة الملاحق) .

(٣٥) المصدر السابق ، دار المحفوظات المركزية العسكرية ، الملف رقم ١/٢١١٢ الموقف العسكرى فى شرق البحر المتوسط ، أميرالاى محمد حافظ إسماعيل .

(٣٦) نص هذه التوجيهات موجود في مجموعة الملاحق .

وأيضًا : المصدر السابق : حرب العدوان الثلاثي على مصر في خريف ١٩٥٦ ، الجزء الثاني ، المجلد الأول ، ص ٢٨-٢٩ .

(٣٧) المصدر نفسه ، ص ٣١ .

(٣٨) المصدر نفسه ، ص ٣١-٣٢ .

(٣٩) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

الفصل الثامن

وسقط القطاع كالثمرة الناضجة

مقدمة - معارك قطاع غزة - طبوغرافية الأرض - أوضاع القوات بالقطاع - خطة الهجوم الإسرائيلية - ملخص معركة غزة - ملخص معركة خان يونس - التعليق .

مقدمة :

لم يكن فى مسرح الحرب ليلة ٣١ أكتوبر / ١ نوفمبر من هو أسعد من الجنرال موشيه ديّان ؛ إذ تحققت كل أمانيه على أكمل صورة . فالقوات الأنجلوفرنسية قد بدأت الحرب ، وقد صرف دافيد بن جوريون النظر عن الأمر الذى أصدره فى الصباح بوقف القتال وعودة القوات إلى إسرائيل ، وقد تحطمت الطائرات المصرية أو رحلت خارج المسرح ، والأساطيل تقترب حثيثاً من شاطىء الغزو ، وقد أجبرت القوات المصرية فى المحور الجنوبى على الانسحاب من الكونتلا والتمد ونخل ، بينما الألوف مشنيه شارون يستعد لاجتياح مضيق متلا .

وإلى جانب تلك الصورة المشرقة . . فقد كانت المجموعة ٣٨ عمليات فى طريقها إلى إحكام حلقة الحصار حول دفاعات أم قطف ، والمجموعة ٧٧ عمليات تهاجم بنجاح دفاعات رفح تحت ستر نيران الطراد جورج ليجوس الصديق ، وباقى جبهات الطوق العربى فى هدوء تام ، يفتح له المجال لتركيز الفكر والجهد كله على القتال الدائر فى سيناء .

وعاد إلى ذهنه ماسبق أن ضربه مثلا لمرؤوسيه ، عندما كشف لهم عن خطة "قادش" الهجومية ، خلال اجتماعه بقسم العمليات بالأركان العامة الساعة الثانية عصر يوم ٢٥ أكتوبر ، فشبَّه دور جيش إسرائيل فى العدوان القادم " براكب الدرجة الذى يصعد التل

ممسكاً بالعربة التى تصعد أمامه ، ولذلك فإن كل ما يمكن عمله بعد الهجوم الجوى الانجلوفرنسى ينبغى ألاَّ نتعجل القيام به قبل ذلك[1] .

ولما كانت تلك الضربة الجوية قد وقعت الليلة ، فلم يعد ما يمنع راكب الدراجة من أن ينطلق بها حيثما يشاء طبقاً للخطة المرسومة .

معارك قطاع غزة

طبوغرافية الأرض (٢)

١ - كأنما اصطبغ ثرى فلسطين باللون الأحمر لكثرة ما أريق عليه من دماء الجيوش ، التى اصطرعت فوقه فى معارك دامية منذ فجر التاريخ ففيما بين حملة تحوتمس الثالث فى مطلع القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وحملة الجنرال اللنبى فى مطلع القرن العشرين ، لم تهنأ فلسطين بفترة سلام تزيد على النصف قرن . ثم إنها كانت البلد الوحيد الذى توالى ظهور واختفاء القبائل والهجرات فيه بأعداد ضخمة . ويؤكد السيرفلاندرز باترى شيخ علماء الآثار أن من يحفر بئراً فى فلسطين سوف يصطدم حتماً بثلاث عشرة حضارة غاربة .

٢ - وقطاع غزة الذى تبلغ مساحته ٣٨٠ كيلومتراً مربعاً ، عبارة عن شريط ساحلى ضيِّق يحدّه من الشمال والشرق خط الهدنة ، ومن الجنوب الحدود المصرية ، ومن الغرب البحر المتوسط ويتراوح عرضة بين ١٠,٥ كيلو مترات ، وتنتشر به الكثبان الرملية قرب ساحل البحر ، تليها أرض منبسطة غنية بحدائق البرتقال والفاكهة التى تحيط بها أسوار التين الشوكى الكثيفة ، وتدور حولها المدقات والدروب المتعرجة الضيقه بما يجعلها أشبه بأرض البوكيج فى إقليم الفلاندرز .

٣ - ويخترق القطاع من الشرق إلى الغرب عدد من الوديان الصغيرة والعميقة التى تتدفق فيها السيول فجأة فى الشتاء ، كما تنتشر القرى فى السهل الممتد على أجناب الطريق الإسفلتى ، الذى يخترق القطاع من الجنوب حتى الشمال .

أوضاع القوات بالقطاع [3]

١ - لم تكن اتفاقية رودس عام ١٩٤٩ تسمح بغير الهاونات والأسلحة الخفيفة فى

القطاع[٤] . ولهذا فقد شكلت الفرقة الثامنة حرس حدود فلسطين فى إبريل ١٩٥٦ ، تحت قيادة اللواء يوسف عبدالله العجرودى من اللوائين ٨٦ قيادة العقيد على البورينى ، و ٨٧ حرس حدود فلسطين قيادة العقيد حسن حمدى ، واللواء ٢٦ حرس وطنى قيادة المقدم جمال الدين على ، وعدة بطاريات هاون ومدافع خفيفة مضادة للطائرات ، وبعض المدافع الساحلية ، وعناصر الهجانة .

٢ - وقسم القطاع إلى منطقتين دفاعيتين على النحو التالى :[٥]

(أ) منطقة غزة - دير البلح فى الشمال ، حيث تمركز اللواء ٢٦ حرس وطنى فى جزيرتى غزة ودير البلح الدفاعيتين ، وفتح مركز قيادته داخل مدينة غزة .

(ب) منطقة خان يونس الدفاعية ، حيث تمركز اللواء ٨٦ حرس حدود فلسطين ، وفتح مركز قيادته بين الدرب السلطانى والسكة الحديد شمال بلدة خان يونس .

خطة الهجوم الإسرائيلية

١ - انقطعت السبل بقطاع غزة بعد استيلاء الألوف لاسكوف على دفاعات رفح بما جعل هجوم الألوف مشنيه أهرون دورون عليه بمجموعة اللواء ١١ المشاه أسهل مهمة قتالية فى معارك العدوان الثلاثى قاطبة .

٢ - فالقطاع الذى يناهز طوله من الشمال للجنوب ٤٥ كيلومتراً ومتوسط عرضه ٧ كيلو مترات يجعل اختراقه وتقسيمه إلى شرائح عملاً سهلاً ، خاصة وأنه محروم من الأسلحة الثقيلة والمدرعات بحكم اتفاقية رودس سالفة الذكر

٣ - فإذا أضفنا إلى ما سبق التأثير النفسى لما كان يحدث فى محاور سيناء الأخرى وقتئذ ، وما ترتّب على الضربة الجوية الانجلوفرنسيه من تدمير الغطاء الجوى المصرى ، لأدركنا حقيقة المستوى المعنوى لهؤلاء الجنود ، الذين التفت حولهم قوات الأعداء من كل اتجاه بما فيه البحر ؛ حيث ربضت السفن الحربية الفرنسية تضرب رفح بمدافعها الثقيله تحت بصرهم وتأسر السفينة إبراهيم الأول على مشارف المياه الإقليمية.

٤ - وقد اشتملت خطة دورون الهجومية على ثلاث مراحل كالآتى :[٦]

(أ) المرحلة التمهيدية يومى ٣١ أكتوبر و١ نوفمبر ، ويتم خلالها عزل قطاع غزة من جهة الجنوب ؛ لمنع التجاء قوات مجموعة اللواء ٥ المشاة اليه .

(ب) المرحلة الأولى يوم ٢ نوفمبر ، ويتم خلالها الاستيلاء على مدينة غزة بالهجوم عليها بحركة تطويق من الجنوب والشمال بمجموعة اللواء ١١ المشاة المعزّز بالدبابات ، بينما تقوم مجموعة اللواء الأول المشاة الجولانى بتثبيت دفاعات خان يونس من جهة الجنوب .

(جـ) المرحلة الثانية والأخيرة يوم ٣ نوفمبر ، ويتم خلالها استغلال النجاح بالزحف من غزة نحو الجنوب ، واجتياح خان يونس بالتعاون مع هجوم ثانوى بقوات رفح من الجنوب .

ملخص معركة غزة (١٢,٥ ساعة فيما بين الساعة الواحدة بعد منتصف ليلة ١ / ٢ نوفمبر . والساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر يوم ٢ نوفمبر)[٧]

بدأ العدو نشاطه الجوى فوق قطاع غزة صباح يوم ١ نوفمبر ؛ حيث راحت طائرات الموستانج تقصفه بعنف ، وتلقى عليه منشورات تدعو أهله إلى التسليم ؛ حتى لايتعرضوا للقتل وتدمير الممتلكات ، كما أشتعلت عدة نيران بالبلدة ، وقد تمكنت المدفعية المضادة للطائرات من إسقاط طائرتين وإسر أحد طياريها [٨] .

وفى نفس الوقت ، كانت مجموعة اللواء ٥ المشاة قد أخلت دفاعات رفح ، وارتدت إلى العريش فتم عزل قطاع غزة ومحاصرته .

وبغروب الشمس وجهت مدفعية مجموعة اللواء ١١ المشاه نيرانها على مواقع غزة ، واستمرت تقصفها حتى الواحدة من صباح ٢ نوفمبر ، بينما كان الألوف مشنيه دورون بفتح قواته للهجوم [٩] .

ومع أول ضوء ، أبلغ الرائد حسين مهدى قائد بطارية المدفعية الساحلية بساحل غزة عن وجود ١١ سفينة حربية أمام القطاع ، منها ٣ سفن بريطانية ، ومثلها فرنسية ، ومثلها إسرائيلية وسفينتين أمريكيتين ، طلبتا إجلاء الأجانب بالقطاع ، عن طريق مكتب هدنة

غزة ، ثم جاءت طائرات إسرائيل لتبدأ مع مدفعية الميدان ضرب النيران التمهيدية للهجوم ، التى استمرت بكثافة شديدة حتى السادسة صباحاً ، تقدمت على إثرها مجموعة قتال مدرعة للالتفاف حول موقع شاكر لمهاجمته من الجنب . ولما فتح الموقع نيرانه ، تحولت مجموعة القتال المدرع نحو موقع على المنطار ؛ بهدف الوصول إلى طريق غزة رفح وقطعه [١٠] .

إلاَّ إنها اصطدمت بموقع أبو فريح الذى تحتله سرية حرس وطنى من ٦٥ فرد وقاذفين مضادين للدبابات ، وقد نجح هذا الموقع فى تدمير دبابتين وعربة نصف جنزير ، فضلاً عن إيقاف الهجوم .

وفى نفس اللحظة تقدمت مجموعة الكتيبة الأولى المشاة من اللواء ١١ فى عربات مدنية ؛ لتستغل نجاح مجموعة القتال المدرعة ، إلا أنها ظلت تنتظر ذلك لمدة ساعتين ، عندما تمكنت الدبابات من اقتحام موقع « أبو فريح » حوالى الساعة الثامنة صباحاً ، بعد أن استشهد كل أفراده عدا ستة من الجرحى الأحياء [١١] .

وتقدمت المشاه فى عرباتها المدنية ؛ حيث ترجلت عند هذه المنطقة ، لتهاجم موقع شاكر من الخلف تحت ستر نيران الدبابات . وواصلت الدبابات الزحف ؛ لتهاجم موقع حامد المحتل بسرية حرس وطنى من ٦٠ فردًا ، فنجحت فى اقتحامه من الحركة ، ووصلت إلى محطة سكة حديد غزة حوالى التاسعة صباحاً .

واستمرت مجموعة الكتيبة الأولى المشاة تهاجم موقع شاكر من الخلف ، بينما المدفعية تصب عليه نيرانها الكثيفة ؛ حتى تمكنت من اقتحامه والتقدم نحو على المنطار مباشرة[١٢] .

وبوصول دبابات مجموعة القتال المدرعة إلى مدخل غزة ، أمر قائد الدفاع عن المدينة بالاستعداد للقتال من منزل إلى منزل ، مع تكثيف الدفاع فى شارع عمر المختار ودار الحكومة[١٣] .

وحاول العدو دفع داورية مدرعة داخل المدينة ، فلما اقتربت من مقر الحاكم العام ، أصيبت دبابتين واضطرت الداورية للرجوع من حيث أتت .

وفى الساعة الثامنة والنصف ، بدأت مجموعة الكتيبة الثانيه المشاه الزحف بحذاء مستعمرة دمرة لمهاجمة موقعى همام والكاشف . وتمكنت من تدمير مدافع الهاون الموجودة فى موقع الكاشف بنيرانها ، ثم الاندفاع بين الموقعين للانضمام إلى القوة المتجهة نحو محطة

السكة الحديد . وفى طريقها إلى المحطة اقتحمت مقر قيادة الدفاع عن مدينة غزة فى موقع المزّينى ، وفتحت الطريق الرئيسى إلى داخل المدينة [١٤] .

فى الساعة العاشرة صباحاً ، توجه المقدم بايارد كبير مراقبى الهدنة لمقابلة الألوف مشنيه دورون لوقف قصف المدينة حفاظاً على أرواح الأهالى المدنيين ، وعاد بايارد لينقل تهديد دورون إلى الحاكم الإدارى العام اللواء محمد فؤاد الدجوى بأن القوات الإسرائيلية والأسطول الفرنسى سوف يدكان المدينة بالقذائف حتى لا يتركا فيها حجر ، على حجر مالم يبادر الحاكم العام بتسليم المدينة عن طريق مراقبى الهدنة[١٥] .

اللواء محمد فؤاد الدجوى
الحاكم الإدارى العام لقطاع غزة

وباستشارة قائد الدفاع عن المدينة رفض تسليمها ، دون أمر من اللواء العجرودى قائد الفرقة الثامنة حرس حدود فلسطين . وبعد عدة محاولات ، أمكن الاتصال بالعجرودى الذى وافق على تسليم المدينة ، التى دخلتها قوات دورون فى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ؛ حيث احتلت مقر الحاكم الإدارى العام ودور الحكومة ، وأعلنت حظر التجول والأحكام العرفية .

ملخص معركة خان يونس [١٦] (١٠.٥ ساعة فيما بين الساعة الحادية عشرة ليلة ٢ / ٣ نوفمبر والساعة التاسعة صباح يوم ٣)

أصبحت خان يونس بعد سقوط غزة بعد ظهر يوم ٢ نوفمبر ، محاصرة من جميع الاتجاهات ، وكان العدو قد قصف مركز قيادة الفرقة الثامنة حرس حدود فلسطين بالبلدة ، التى لم يكن بها مدفع واحد مضاد للطائرات ؛ مما جعل طائرات العدو توالى قصفها من ارتفاع منخفض فتشتعل بها الحرائق وتهدم المبانى . وكان اللواء يوسف عبد الله العجرودى قائد الفرقة ٨ حرس حدود فلسطين ، قد عقد مؤتمراً فى الساعة السابعة والنصف من صباح ٢ نوفمبر فى مركز قيادته بخان يونس ، شرح فيه الموقف الحقيقى لمرؤوسيه ، ثم أعلن عن عزمه على الدفاع والصمود حتى آخر طلقة ، وقد وافقه جميع مرؤوسيه على ذلك ، وتواعدوا على القتال حتى النهاية[١٧] .

وقبل منتصف ليلة ٢ / ٣ نوفمبر بنحو ساعة ، أطبقت دبابات العدو على البلدة من جهة الشمال فاشتبكت معها المواقع الدفاعية ، وتمكنت من تدمير دبابة واحدة وعربتين نصف جنزير . وبفضل الألغام المبعثرة التى زرعها المدافعون عن البلدة على الطريق الأسفلتى ، لم يستطع العدو مواصلة الزحف فحول اتجاهه نحو التبة ٨٦ ذات الشهرة الكبيرة فى معارك حرب فلسطين ؛ حيث أبدى اللواء محمد نجيب و الرائد أحمد فتحى عبد الغنى بطل هذه المعركة من ضروب الشجاعة ما استحقا به الثناء العظيم .

غير أنه لم يكن هناك على التبة هذه المرة من يصمد فى وجه الهجوم مثلما صمد نجيب وعبد الغنى ، إذ سرعان ما احتلها العدو حوالى منتصف الليل ؛ ليتخذها قاعدة الهجوم على بلدة خان يونس ، التى راح يمطرها بمدافعه وهاوناته .

وفى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، استطاع العدو أن يفتح ثغرة فى دفاعات البلدة الأمامية ، وتمكن من اجتياح موقع كافور ، وثم أعقبه بفتح ثغرة ثانية من إتجاه رفح .

وفى الساعة الرابعة صباحاً ، انطلق العدو داخل دفاعات البلدة عن طريق الدرب السلطانى والشارع الرئيسى ؛ حيث أمكنه التغلب على نقطة قوية من فصيلة مدعمة بمدفع واحد مضاد للدبابات عيار ٦ رطل ، سرعان ما أزاحها عن طريقة ، واندفع نحو قيادة الفرقة الثامنة فوصلها فى الرابعة والنصف فجراً .

ولم يكن بهذه القيادة سوى اللواء العجرودى وبعض ضباطه وجنوده ، الذين ظلوا يقاومون عدة ساعات ؛ حتى وقعوا جميعاً فى الأسر فى الساعة التاسعة والنصف من صباح ٣ نوفمبر [١٨] .

وباستيلاء قوات دورون على مركز قيادة العجرودى ، تتابع انهيار الدفاعات ، وإن ظل الأهالى يقاومون ببسالة داخل البلدة ، وفى حواجز التين الشوكى فلم يتمكن دورون من إحكام قبضته عليها حتى صباح ٧ نوفمبر .

وكانت هذه المقاومة الباسلة سبباً فى قيام العدو بالانتقام من الأهالى ، وقتل بعض الجنود والمدنيين الأسرى بطريقة وحشية [١٩] .

التعليق :

إلى جانب الطبيعة الطبوغرافية للقطاع التى لاتساعد على إحكام الدفاع عنه أو توفير العمق للقيام بالهجمات المضاده بالقوات والنيران ، فقد كانت القوات المكلفة بالدفاع عنه قليله العدد ضعيفة التدريب ، تفتقر إلى العنصر المدرع والأسلحة الثقيلة ، نزولاً على أحكام اتفاقية رودس .

وزاد موقف القطاع حرجاً سقوط دفاعات رفح وتدمير طائرات مصر ؛ مما وفر للعدو سماءً لا يشاركه فيها أحد . فإذا أضفنا إلى كل ما سبق طول مواجهات المواقع الدفاعية ، التى تجاوزت ٢٠ كيلومتراً بالنسبة للواء ٨٦ حرس حدود فلسطين ؛ المسؤول عن تأمين جزيرة خان يونس الدفاعية ، ومنع العدو من اختراقها أو التسلل بين مواقعها الدفاعية ، وكذا مواجهة اللواء ٢٦ حرس وطنى التى لا تقل عنها ، وقد كان مسئولا عن تأمين جزيرة غزة - ودير البلح الدفاعية ؛ لأدركنا الوضع البالغ الحرج الذى وجد اللواء العجرودى نفسه مسؤلا عنه ، دون أن تتوفر له بارقة أمل فى الصمود .

إلاَّ أنه ربما كان من الأوفق الاعتماد على الكمائن والأعمال الفدائية ومناورات الضرب والهرب بدرجة أكبر ؛ لإلحاق خسائر أشد بالعدو وإطالة أمد الدفاع عن القطاع الذى كان سقوطة فى نهاية المطاف مثل الثمرة الناضجة على الشجرة أمر لا يختلف فيه اثنان .

ورغم ذلك ، فلم يعدم القطاع من المدافعين من أبلى بلاءً حسناً وأبدى شجاعة وشهامه كانت محل التقدير والإعجاب ، وعلى رأسهم قائد الفرقة الثامنة ، وذلك الموقع الذى سقط أغلب أفراده شـهداء على مشارف مدينـة غزة ، قبل أن يتمكـن العدو بحكم تفـوقه العددى والنوعى الساحق أن يجتاحه وكذلك أهالى بلدة خان يونس الشجعان .

توثيق الفصل الثامن

(١) المصدر السابق : يوميات معركة سيناء ، ص ٨٨ .

(٢) المصدر السابق : حرب العدوان الثلاثى على مصر فى خريف ١٩٥٦ ، ص ٣٩١ .

وأيضًا : Op.Cit.: Elusive Victory, pp. 191.

وأيضاً : Op.Cit.: The Twice Fought War, p. 552.

حيث يذكر المؤلف أن مرجع التاريخ الرسمى الإسرائيلى عن معارك سيناء ، فى خريف ١٩٥٦ ، وصف قطاع غزة بأنه الأرض التى يصعب الدفاع عنها ؛ حيث تخلو من الهيئات الحيوية التى تحقق استقرار واتزان الدفاع .

(٣) دار المحفوظات المركزية العسكرية ، وثائق حرب ١٩٥٦ ، الملف رقم ٣٠ ، خريطة أوضاع قوات الفرقة ٨ ، حرس حدود فلسطين .

(٤) جامعة الدول العربية ، الإدارة العامة لشئون فلسطين : الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين ، المجموعة الثانية ، ١٩٤٧-١٩٤٩ ، الوثيقة رقم ٣٦ ، اتفاق الهدنة العامة بين مصر وإسرائيل بتاريخ ٢٤ فبراير ١٩٤٩ ، باللغتين العربية والانجليزية ، الملحق رقم ٣ ص ٥٠٨ .

(٥) المصدر السابق : دار المحفوظات المركزية العسكرية ، وثائق حرب ١٩٥٦ ، الملف رقم ٣٠ ، خريطة أوضاع قوات الفرقة ٨ ، حرس حدود فلسطين .

(٦) المصدر السابق : يوميات معركة سيناء ، ص ١٧٦ .

أيضًا المصدر السابق : الحروب العربية الإسرائيلية ١٩٤٨-١٩٨٢ ، ص ١٥٣-١٥٥ .

وأيضًا : Op.Cit.: Elusive Victory, pp. 191–192.

وأيضاً : Op.Cit.: The Twice Fought War, p. 551–552.

(٧) المصدر السابق : دار المحفوظات المركزية العسكرية ، وثائق حرب ١٩٥٦ ، ملخص الحوادث عن عمليات القطاع المصرى بفلسطين ، الملف رقم ٣٠ .

(٨) Op.Cit.: The Twice Fought War, p. 551.

وأيضًا المصدر السابق : حرب العدوان الثلاثى على مصر فى خريف ١٩٥٦ ، الجزء الثانى ، ص ٣٩٧ ، وقد ذكر فى هذا المرجع أنه أسقطت طائرتان وليست طائرة واحدة ، وذلك خلال يوم واحد نوفمبر .

(٩) المصدر السابق : دار المحفوظات المركزية العسكرية ، وثائق حرب ١٩٥٦ ، ملخص الحوادث عن عمليات القطاع المصرى بفلسطين ، الملف رقم ٣٠ .

وأيضًا : Op.Cit.: Elusive Victory, pp. 191.

(١٠) المصدر نفسه .

وأيضاً : Op.Cit.: The Twice Fought War, p. 551-552.

(١١) المصدر السابق : حرب العدوان الثلاثى على مصر فى خريف ١٩٥٦ ، ص ٣٩٧ - ٤٠٠ .

(١٢) يزعم الجنرال دايان فى كتابه يوميات معركة سيناء بالصفحة ١٧٦ أن تل على المنطار حسب النصوص المقدسة ، هو الجبل الذى رفع شمشون إليه أبواب المدينة ، وإن كان الغالب تاريخياً أن شمشون كان يقطن بلدة شكيم المعروفة حالياً بنابلس ، والتى أخذت اسمها من الإمبراطور الرومانى نيرون وهو المقطع الأول من اسم المدينة ، أما بوليس فتعنى باللغة الرومانية البلدة .

(١٣) المصدر السابق : حرب العدوان الثلاثى على مصر فى خريف ١٩٥٦ ، ص ٣٩٧ - ٤٠٠ .

المصدر السابق : دار المحفوظات المركزية العسكرية ، وثائق حرب ١٩٥٦ ، ملخص الحوادث عن عمليات القطاع المصرى بفلسطين ، الملف رقم ٣٠ .

وأيضاً : Op.Cit.: The Twice Fought War, p. 552.

(١٤) المصدر نفسه : نفس الصفحات .

Ibid, Same page.

المصدر السابق : دار المحفوظات المركزية العسكرية ، وثائق حرب ١٩٥٦ ، ملخص الحوادث عن عمليات القطاع المصرى بفلسطين ، الملف رقم ٣٠ .

(١٥) Burns, E.L.M., Lietenant General : Between Arab and Israel, (Beirut, The Institute for Palestinian Studies, 1969), pp. 183–184.

وقد ذكر كينيت لوف فى كتابه The Twice Fought War بالصفحة ٥٥٢ أن الإسرائيليين عاملوا الدجوى بكثير من الفظاظة ؛ انتقاماً للأحكام القاسية التى أصدرها بصفته رئيس المحكمة العسكرية ، التى حاكمت جواسيس قضية لافون الشهيرة عام ١٩٥٤ .

(١٦) المصدر السابق : دار المحفوظات المركزية العسكرية ، وثائق حرب ١٩٥٦ ، ملخص الحوادث عن عمليات القطاع المصرى بفلسطين ، الملف رقم ٣٠ .

وأيضاً : Op.Cit.: The Twice Fought War, p. 552.

وأيضًا : Op.Cit.: Elusive Victory, pp. 192.

أيضًا المصدر السابق : حرب العدوان الثلاثى على مصر فى خريف ١٩٥٦ ، ص ٤٠٠ - ٤٠٢ .

(١٧) المصدر السابق : دار المحفوظات المركزية العسكرية ، وثائق حرب ١٩٥٦ ، ملخص الحوادث عن عمليات القطاع المصرى بفلسطين ، الملف رقم ٣٠ .

(١٨) المصدر نفسه .

(١٩) منهم ١١١ شهيدًا فلسطينيًا قتلهم جنود إسرائيل يوم ١٢ نوفمبر داخل معسكر رفح ؛ مما دفع الجنرال بيرنز رئيس مكتب الهدنة إلى التنويه بأن الإسرائيليين يقتلون العرب ، الذيين يعتزمون اغتصاب أراضيهم ، مثلما سبق أن فعلوه بدير يس عام ١٩٤٨ .

وقد قدَّر المستر هنرى لابويس الأمريكى ، مدير مكتب إغاثة اللاجئين الفلسطينيين أن قتلى العرب على يد جنود إسرائيل بلغ ٢٧٥ شهيداً . وكما شهد الكولونيل

ماكارتى عـضو مكتب الهدنة بـغزة ، ومعه المقدم حسـن البدرى رئيس عمليـات هيئة الاتصالات بقوات الـطوارئ الدولية قبراً جماعـيًا فى منطقة بير لحـفن ، دفن به عدد كبير من الجنود المصريين المكتوفين الأيـدى ، وكان واضحاً أنهم قتلوا بالرصاص قبل أن يهال عليهم التـراب بالبلدوزر ، ص ٥٧١-٥٧٢ من كتاب The Twice Fought War .

الفصل التاسع

الجحيم فى الجفجافة

مقدمة - الاستعداد للمطاردة - التدابير المصرية المضادة -الأوضاع الدفاعية النهائية قبل وقوع العدوان

مقدمة

بعد أن اعتمد اللواء محمد عبد الحكيم عامر قرار توحيد الجبهة فى الساعة العاشرة من ليلة ٣١ أكتوبر / ١ نوفمبر ١٩٥٦ ، تحول ميزان النجاح من درجة التشبّث بدفاعات سيناء إلى سرعة الجلاء عنها ، قبل أن يعزل الغزو البحرى ، القوات عن قواعدها الرئيسية بوادى النيل .

والمعروف أن الإنسحاب أشق أوجه المعركة الحديثة للأسلحة المشتركة ، لأنه يتطلب كفاءة قتالية عالية ، وانضباطًا رفيع المستوى ، بالإضافة إلى القدرة على سرعة التصرف المرتبطة برباطة الجأش والروح التعرضية الوثابة . ولهذا كان تعليق الرئيس عبدالناصر بمجرد أن وقع اللواء عامر القرار ، أن نوه بأنه أخطر وثيقة فى مواجهة العدوان .

وفى صباح الخميس ١ نوفمبر ، كانت مصر تقف وحيدة بين ثلاثة أعداء ، تعاهدوا على تدميرها . ولم يكن أمام الرئيس عبد الناصر غير الاتحاد السوفيتى أو الولايات المتحدة ليطلب من أحدهما العون ، إلا أن الكرملين كان لديه مايكيفه من المشاكل فى بولنده والمجر ، فضلا عن أن وصول أى قوات منه إلى مصر سوف يتطلب اجتياز أراضٍ محايدة أو ممالئة للغرب ، ثم إن تدخل السوفيت كان أكثر احتمالا لاثارة حرب عالمية ثالثة .

وخشية من هذا الاحتمال الخطير ، تحوَّل عبد الناصر إلى البيت الأبيض فسلم السفير الأمريكى بالقاهرة المستر رايموند هير رسالة إلى الرئيس أيزنهاور ، يطلب منه المساعدة فى

هذه الظروف البالغة الخطر . فلما سأله السفير هل تعتزم أن تتخذ رفض أيزنهاور مساعدتك مبرراً لطلب تدخل السوفيت ، أكد عبد الناصر أن ذلك لم يخطر له على بال[١] .

وجاء رد الرئيس أيزنهاور صباح الغد ، مؤكداً أن الولايات المتحدة سوف تبذل كل وسعها لحل المشكله فى الأمم المتحدة ، وأنها لاتستطيع الدخول فى حرب ضد حلفائها سواء الأنجلوفرنسيين أو الإسرائيليين .

وبهذا أصبحت سرعة سحب قوات مصر من سيناء ، هى الإجراء الملح لدرء الخطر وحماية نظام الحكم من الانهيار [٢] .

الاستعداد للمطاردة

وكان الألوف مشنيه بن آرى قد استلم قرب منتصف ليلة ٣١ أكتوبر / ١ نوفمبر رسالة مباشرة من الجنرال ديان بأن يبدأ المطاردة فى اتجاه الجفجافة بمجرد أن ينبلج ضوء الفجر ، وفى الساعة السادسة صباحاً كانت كتيبتا بن آرى المدرعتان تجتازان بير الحمة فى الطريق إلى بير روض سالم ؛ حيث توجد القاعدة الإدارية الرئيسية لقوات سيناء[٣] .

وبمجرد اقتراب دبابات المقدمة من القاعدة ، وقعت تحت قذائف مؤخرة الفرقة الرابعة المدرعة التى كانت تستر ارتداد القوات من بير الجفجافة ، فحدثت عدة خسائر فى دبابات الطرفين ، قبل أن تتوقف المؤخرة عن الاشتباك ، وتبدأ الانسحاب للخلف بعد أن اتمت مهمتها فى تعطيل العدو[٤] .

ودخلت قوات بن آرى القاعدة الإدارية حوالى الساعة السابعة ؛ لتغنم كميات كبيرة من الذخائر والملبوسات والأطعمة والوقود ، بينما استمرت مفرزة من تسع دبابات الضغط على المؤخرة المنسحبة ومطاردتها صوب الجفجافة [٥] .

وعندما وصلت الى مسافة ثمانية كيلومترات غرب بير روض سالم ، وقعت قوة المطاردة للمرة الثانية تحت النيران المصرية ، التى استمرت عدة ساعات وحطمت دبابتين ، فقطع آرى الاشتباك لقرب نفاد الوقود ، وعاد بعد المغرب الى الخلف ليخلى جرحاه ويتزود بالوقود .

وشعر بن آرى من عنف النيران المصرية الأخيرة ان القوة المتمركزة لستر الانسحاب لن يزحزحها من مواقعها إلا ضربة مدرعة قوية جيدة التنسيق ؛ ولذا عكف فيما بقى من ساعات

الليل على رسم خطته ليبدأ التحرك مع أول ضوء ٢ نوفمبر ، عازماً على اجتياح بير الجفجافة [٦] .

وقبل أن يصل إلى مضيق الجفجافة بنحو ساعة ، كانت المقاتلات القاذفة الإسرائيلية قد بدأت قصفه بالقنابل الشديدة الانفجار والنابالم حتى أحالته إلى كتلة من الجحيم ، الذى زادت نيران دبابات بن آرى ألسنته اشتعالاً قبل أن تقتحمه لتجدة خالياً من قوات الفرقة الرابعة المدرعة ، التى كانت قد عبرت قناة السويس تحت جنح الظلام ؛ لتفتح فى محلاتها الجديدة على الضفه الغربية[٧] .

ولم تكن نيران النابالم قد انطفأت بعد عندما استأنف بن آرى المطاردة نحو الغرب ، وقد أصبحت الشمس فى أعين قادة الدبابات الذين فتحوا أغطية السطح ووقفوا يشاهدون الطبيعة الصخرية الوعرة للأرض حول المضيق ، وتقع أعينهم بين الفينة والفينة على عربة مدمرة ، أو مدفع ملقى على جانبه وقد انفجرت ذخيرته فقتلت طاقمه . ولم يغب عنهم ان كل هذا الدمار إنما فعلته طائراتهم فى الصباح الباكر [٨] .

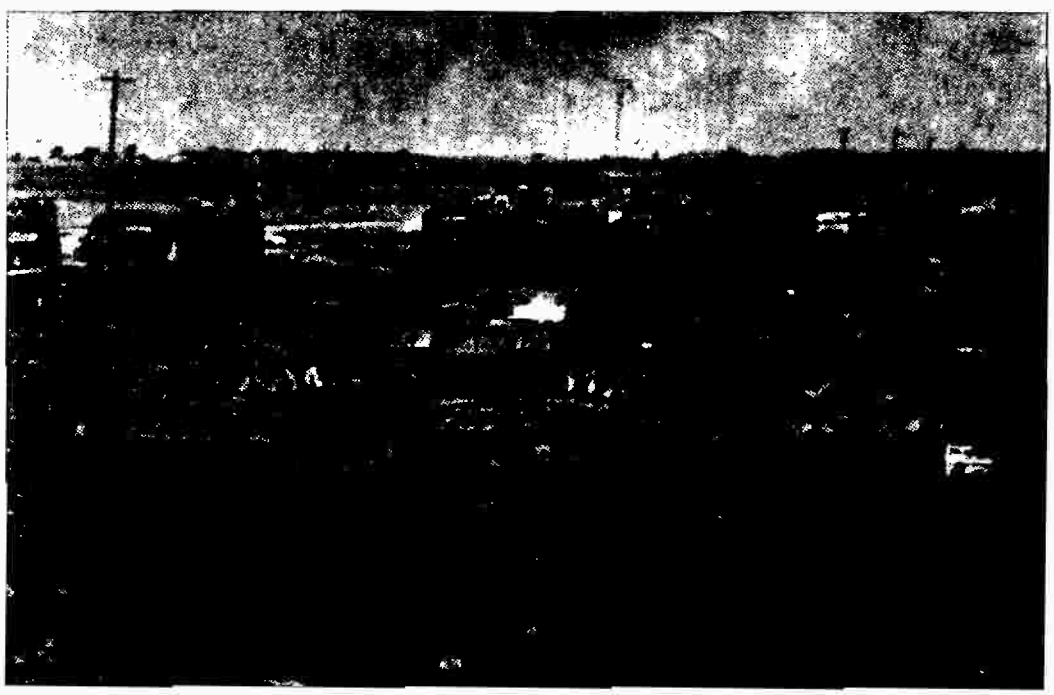

لقد فعلت طائراتهم كل هذا الدمار فى الصباح الباكر

وقبل مخرج المضيق ، اصطدم بن آرى بحرس مؤخرة المجموعة الاولى المدرَّعة بينما الشمس تميل على خط الأفق فى الغرب . ودارت معركة قصيرة فى حساب الزمن شديدة فى كثافة النيران ؛ حيث أبلت فصيلة من الدبابات طراز ت - ٣٤ ومدافع الاقتحام طراز ١س / يو ١٠٠ بلاءً حسناً قبل ان تستأنف الانسحاب نحو القناة ليلة ٢/ ٣ نوفمبر ، تتبعها دبابات بن أرى حتى مسافة ١٠ كيلومتراً شرق القناة ؛ حيث توقفت طبقاً لاتفاقية التواطؤ التى قضت بألاَّ يقترب الإسرائيليون لأقل من عشرة أميال من القناة حتى يتركوا الشريحة الأرضية الكافية على امتدادها القناة للغزو البحرى الأنجلوفرنسى الوشيك[٩] .

التدابير المصرية المضادة

تتابع انسحاب عناصر الفرقة الثالثة المشاه على المحور الشمالى ، والفرقة الرابعة المدرَّعة على المحور الأوسط ، ومجموعة اللواء الثانى المشاه على المحور الجنوبى ، وعبور القناة عند القنطرة ، وكوبرى الفردان شمال الإسماعيلية ، والشط على الترتيب . وقبيل فجر ٣ نوفمبر ، كانت تلك القوات قد بدأت فى تنظيم الدفاعات وإقامة التحصينات فى الضفة الغربية لقناة السويس ، بينما تولّت مجموعة اللوء ٩٧ المشاة الاحتياطية ، وأربع كتائب من جيش التحرير الوطنى ، وسرية مهندسين عسكريين مسؤولية الدفاع عن بورسعيد [١٠] .

وفى الوقت نفسه ، تابعت الفرقة الثالثة المشاه تحركها إلى القاهرة للدفاع عنها ، بينما عادت مجموعة اللواء الثانى المشاه إلى منطقتها الدفاعية فى الشلوفة ، ومعها اللواء ٤٢٦ من جيش التحرير الوطنى [١١] .

واستأنفت الفرقة الرابعة المدرَّعة ، ومعها الكتيبة ٢٠ المشاه العمل فى الاحتياطى العام للقيادة الشرقية ، بعد أن نظمت قوتها فى مجموعات تكتيكية ، انتشرت حول الحافة الشرقية للدلتا ، مستترة بالأرض المزروعة ، وهى على أهبة الاستعداد للانقضاض على قوات العدو من عدة محاور متعامدة على قناة السويس .

إلاَّ أن القيادة العامة عادت وقررت سحب الفرقة الرابعة المدرعة إلى القاهرة ؛ لتعمل فى الاحتياطى العام . وقد ترتَّب على سحبها من احتياطى القيادة الشرقية أن أصبحت مؤخرة منطقة القناة خالية من أى احتياطيات خفيفة الحركة ، كما أصبحت مشارف الدلتا مفتوحة أمام الأعداء إذا ما نجحوا فى اختراق دفاعات القناة[١٢] .

ولعلاج هذا الوضع ، قامت القيادة الشرقية بإعادة النظر فى الخطة الدفاعية عن القناة ، على أساس المبادئ التالية : [١٣]

١ - تركيز الدفاع داخل جزر دفاعية ، ذات كفاية ذاتية قتالية وإدارية ، عد استحالة الاعتماد على القتال المتحرِّك لعدم توفر عناصره الخفيفة الحركة .

٢ - تعزيز جزيرة بورسعيد الدفاعية ، وإعدادها لمواصلة الصمود كمنطقة مبنية ، تستطيع القتال من منزل إلى منزل لتكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة .

٣ - إنشاء خط دفاع ثانٍ عن منطقة القناة عند العباسة .

٤ - انتقال القيادة الشرقية من معسكر الجلاء بالإسماعيلية الى الزقازيق ؛ حيث تفتح مركز قيادة ميدانيًا هناك .

الأوضاع الدفاعية النهائية قبل وقوع الغزو الانجلوفرنسى [١٤]

كان تصميم اللواء على على عامر ينصب على ضرورة تامين مدن القناة الرئيسية - بورسعيد والإسماعيلية والسويس - وتقسيم هيكل الدفاع عن المنطقة إلى ثلاثة قطاعات دفاعية على النحو التالى :

القطاع الشمالى

ويشمل منطقة قناة السويس من بورسعيد شمالاً إلى فايد جنوباً ، وقد خصصت للدفاع عنه وحدات حامية بورسعيد العسكرية، ووحدات حامية الإسماعيلية وفايد العسكرية كالآتى:

١ - وحدات حامية بورسعيد العسكرية ، وتشمل اللواء ٩٧ المشاه الاحتياطى ، والكتيبة الرابعة المشاه ، وكتيبتى حرس وطنى ، وبطاريتين مدفعية ساحلية ، وعناصر ساحلية ، وعناصر مدفعية ميدان ، ومدفعية خفيفة مضادة للطائرات .

٢ - وحدات حامية الإسماعيلية وفايد العسكرية ، وتشمل رئاسة الفرقة الثانية المشاه ، ومجموعة اللواء السابع المشاه ، وكتيبة من مجموعة اللواء الثالث المشاه ، واللواء ٩٩ المشاه الاحتياطى ، وعشر كتائب من جيش التحرير الوطنى ، والآى مدفعية ميدانية ، والآى آخر مضاد للدبابات ، وثالث خفيف مضاد للطائرات ، ورابع من المهندسين العسكريين ، وثلاث محطات اتصال جوى .

القطاع الجنوبى

ويشمل منطقة السويس من بير عديب جنوباً حتى فايد (خارج) شمالاً . وقد خصصت لة مجموعة اللواء الثانى المشاه ، وكتيبة من مجموعة اللواء السابع المشاه ، واربع كتائب احتياطية وأمن وحراسة وجيش التحرير الوطنى ، وبطارية مدفعية ميدانية ، وبطاريتين هاون ثقيل ، وبطاريتين مدفعية ساحلية ، وعناصر خفيفة ومتوسطة مضادة للطائرات ، ومحطة اتصال جوى .

القطاع الغربى

وقد ركَّز مجهودة الرئيسى للدفاع عن منطقة العباسة ، وقفل محور تقدم العدو صوب القاهرة ، مع إنشاء قاعدة داوريات مقاتلة بعيدة المدى ؛ للإغارة على خطوط مواصلاته بالتعاون مع قوات القطاعين الشمالى والجنوبى سالفى الذكر ، بالإضافة إلى العمل كاحتياطى عام القيادة الشرقية لتنفيذ ما سوف تكلفه من مهام . وقد اشتمل القطاع الغربى على مجموعة اللواء الثالث المشاه وأورطة دبابات خفيفة أ . م . إكس ، وتروب مدفعية ميدانية وآخر مضاد للطائرات .

التعليق

لقد قيَّم الرئيس عبدالناصر عملية انسحاب القوات من شبة جزيرة سيناء ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها فقال . . . " لم يكن فى استطاعتنا أن نتم سحب القوات من سيناء

فى مدة أقصر ؛ فالواقع أن اتمام الانسحاب فى هذا الزمن الوجيز يعتبر معجزة ، فقد كانت القوات تسابق الزمن بالدقائق والساعات ، وليس بالأيام والأسابيع . ولو تأخر الانسحاب عن موعده أربع وعشرين ساعة أخرى لوقعت الكارثة [١٥] .

ومن الجدير بالذكر أنه حتى بعد وقوع الضربة الجوية الأنجلوفرنسية ، وانكشاف التواطؤ الثلاثى بما لا يترك مجالاً للشك ، أخذ اللواء عامر قائد عام القوات المسلحة - يصر على استمرار التشبّث بدفاعات سيناء ، حتى أقنعه الرئيس عبدالناصر أن سيناء أصبحت أسبقية ثانوية بمقارنتها بمنطقة قناة السويس ، التى سوف تقع عليها الضربة الرئيسية بالقوات الأنجلوفرنسية ؛ لإعادة احتلال مصر ، وإسقاط نظام الحكم الثورى بالقاهرة .

وبالمثل ، فقد أبدى العقيد جعفر العبد نفس الرغبة فى أن يستمر بمجموعة لوائه فى التشبث بدفاعات رفح ، وراح يؤكد للواء عامر قدرة قواته على تحقيق ذلك ، حتى قام اللواء عامر بما سبق أن قام به الرئيس عبدالناصر معه منذ لحظات ، فأقنع العبد أن المسألة لم تعد سيناء بل مصر نفسها .

وقد ذكر الرئيس عبد الناصر فى تحليله لعمليات سيناء " إن الجيش وإن كان قد فقد نحو ٣٠ دبابة ت - ٣٤ خلال الانسحاب ، فإن الحساب الصحيح يقتضى بأن نعتبر أننا كسبنا ١٧٠ دبابة من المائتين ، اللتين كانتا على المحور الأوسط عندما صدر أمر الانسحاب العام ، لأننا لو تأخرنا بضع ساعات لضاعت دباباتنا ومعها ٢٥٠ عربة مدرعة ، كانت تعمل على المحور الأوسط .

أما خسائرنا فى اللوارى والعربات الميكانيكية . . فقد استعضنا أضعافها من المستودعات البريطانية فى منطقة القناة ، التى اعتبرناها من غنائم الحرب .

ومع ذلك . . فإن هذا الانسحاب العام لم يتم على الوجه الذى تقضى به الأساليب المعتمدة فى مدارس الحرب ، ومع وضع دقة الموقف وسيطرة طائرات العدو والقلق الذى أثاره افتضاح التواطؤ الأنجلوفرنسى ، واشتراكه فى العدوان على مصر موضع الاعتبار . . فإن تنظيم أعمال الانسحاب شابها كثير من المثالب ، التى زادت من الخسائر ، وغرست عدة مفاهيم خاطئة ، ظهرت آثارها السيئه بعد ذلك بعشر سنين ، عندما انسحبت القوات المصرية من شبه جزيرة سيناء فى فوضى شاملة ، فقدت خلالها أغلب عتادها وعدة آلاف من أعز شبابها أسرى وجرحى وشهداء .

توثيق الفصل التاسع

(١) Op.Cit., The Twice Fought War, p. 557–558.

وأيضًا : المصدر السابق ، ملفات السويس ، ص ٥٦٦ .

(٢) Ibid, p. 96.

(٣) المصدر السابق : يوميات معركة سيناء ، ص ١٢٥ - ١٢٨ .

(٤) Op.Cit., Elusive Victory, pp. 193.

(٥) Ibid.

(٦) Ibid.

(٧) المصدر السابق : حرب العدوان الثلاثى على مصر فى خريف ١٩٥٦ .

وأيضًا : Ibid, p. 177–178.

(٨) المصدر السابق : دار المحفوظات المركزية العسكرية ، تقارير القوات المحاربة عام ١٩٥٦ ، الملف رقم ٦/ ٢١٥١ .

(٩) Op.Cit., Elusive Victory, pp. 194.

(١٠) المصدر السابق : حرب العدوان الثلاثى على مصر فى خريف ١٩٥٦ ، الجزء الثانى ، المجلد الثانى ، ص ٦٧ - ٧٠ .

(١١) المصدر نفسه : ص ٧٢ .

وأيضًا : المصدر السابق ، سجل عمليات ١٩٥٦ ، رقم القيد ١٠٣٦ / ٦٦٣ ، يومية الحرب عن القيادة الشرقية المدة من ٢٩/ ١٠ إلى ٨/ ١١/ ١٩٥٦ .

(١٢) المصدر نفسه : ص ٦٨ .

وأيضًا : المصدر نفسه .

(١٣) المصدر نفسه : ص ٦٨ - ٦٩ .

وأيضًا : المصدر نفسه .

(١٤) المصدر نفسه : ص ٧٠ - ٧٣ .

وأيضًا : المصدر نفسه .

الفصل العاشر

مدق المهالك ومعركة الشرم

مقدمة - طبيعة الأرض - طبوغرافية مدق المهالك - أهمية منطقة شرم الشيخ - هيكل الدفاعات المصرية - استعدادات وخطط طارئة - سير الاقتراب -مجموعة بوفيه - مجموعة إيتان - معركة شرم الشيخ - تصرفات اللحظات الأخيرة - الخطة الدفاعية الجديدة - ثم بدأ القتال - إعادة التنظيم - صد الهجوم الليلى الأول - وصد الهجوم الليلى الثانى - الجنرال ديان يلقى بثقله - وعند الضحى سقط الشرم - التعليق - تذييل.

مقدمة :

لم يشق على حكومة إسرائيل اختلاق المبررات لشن عدوانها على مصر عام ١٩٥٦ ، إلا أن ما شجر من خلاف بين حلفاء التواطؤ كشف عن زيف أغلبها ، قبل أن تتوقف النيران فى المسرح ، بينما تولى عدد من القادة الإسرائيليين الكشف عن الباقى ، فيما نشروه بعد الجولة من مذكرات شخصية ويوميات حرب ، ومنهم الجنرال أرييل شارون الذى ذكر صراحة فى كتابة ، أنه لم يصادف وكراً واحداً للفدائيين خلال زحفه الطويل فى سيناء على نحوما أدعاه بيان حكومة إسرائيل الذى أذاعته فى الساعة التاسعة مساء ٢٩ أكتوبر ، من محطة « قُول إسرائيل » ؛ أى « صوت إسرائيل » لتعلن على العالم أن هدفها من الأعمال الحربية فى سيناء ، هو القضاء على أوكار الفدائيين[1] .

وبذلك يكون كل مازعمته إسرائيل من مبررات قد ظهر زيفه ، عدا تصميم إسرائيل على فتح خليج العقبة لسفنها وسفن الدول الأخرى ، التى تحمل البضائع إلى ميناء إيلات ، وكذا الرغبة فى توسيع رقعة إسرائيل التى عبر عنها الجنرال ديّان بطريقة مباشرة ، عندما راح

يهنئ بن جوريون فى نهاية العدوان بالإمبراطورية التي أصبحت تطل على بحرين ، بينما أعضاء الكنسيت وقوف يترنمون بنشيد هاتيكفا - الأمل - ثم يعتمدون ضم سيناء إلى إسرائيل، وقيام الإمبراطورية التى سرعان ما أيقظهم من فرحتها الغامرة ، قرار مجلس الأمن بالانسحاب من كل الأرض التى احتلت بالعدوان[٢]

طبيعة الأرض

يشكل خليج العقبة جزءاً من أعمق الفوالق بالقشرة الأرضية ، الذى يبدأ من شمال قرن أفريقيا ، ويمر بالبحر الأحمر وخليج العقبة ووادى عربة ومنطقة الغور ونهر الأردن والبحر الميت وبحيرة طبرية وبحيرة حمص ونهر العاصى ، حتى مشارف جبال عمانوس على حدود هضبة الأناضول .

وقد ترتب على حدوث هذا الفالق العميق فى الأزمة السحيقة ، أن برزت الصخور النارية على جانبى خليج العقبة ؛ لتشكل سلاسل بركانية وجلاميد صخرية ، تحف بساحله الغربى حتى تكاد تطبق على مياهه فى كثير من المواضع .

وتتميز تلك الجبال بجمال خلاب ، يشد إليه الأنظار نظراً لتعدد ألوانها التى تظل تتغير بكل درجات الطيف ؛ تبعاً لدرجة سيل الشمس ؛ حتى تصبح زرقاء ضبابية قرب الغروب . ويتخلل تلك السلاسل الوديان والشعاب الكثيرة ، التى تقطعها طولاً وعرضًا ؛ بما يجعل التحرك بمحاذاة ساحل الخليج أو عموديا عليه أمرا ممكنا بكثير من المشقة والجهد ، لاسيما بين رؤوس وأعناق الزجاجة التى لا تستطيع اختراقها سوى العربات المجنزرة ؛ نظرا لكثرة الكثبان الرملية وشرائح التربة الناعمة والخوانق الصاعدة والمنحدرات الهابطة بزاويا حادة ، يستند جانبها الغربى على حائط صخرى قائم الزاوية تقريبا ، بينما ينحدر الجانب الآخر فجأة إلى قاع الوادى السحيق الذى يحف بالخانق من جهة الشرق .

وليس ماسبق هو كل ما يصبغ ذلك المحور بالوعورة التى أكسبته صفة " مدق المهالك " ؛ فجلاميد الصخر الضخمة التى تنتشر فى أنحائه ، والمنحنيات الحادة التى تلفه يمنة ويسرة ، وكأنها أثر لثعبان هائج ، كل ذلك يجعل السير بقوة كبيرة عبر تلك المدقات ، ضربًا من العذاب الذى يشق على الجنود ، ويجهد المركبات ، ويستهلك الوقود والزيوت بمعدلات عالية، ويفسد الأجزاء المتحركة بتراكم ذرات الغبار الدقيق على أسطحها.

ولم تكن القيادات غافلة عن هذا المحور ، فقد سبق استطلاعه بواسطة مجموعة كبيرة من ضباط قيادة قوات سيناء ، برئاسة قائدها اللواء أحمد سالم ، ومعه رئيس عملياته المقدم حسن البدرى ، وكذا المقدمين محمد يسرى قانصوه من هيئة عمليات القوات المسلحة ، وأحمد على عطية من سلاح المدرعات ، والمهندس عبد الرحمن عوف من سلاح الصيانة ، وقدمت تقريراً منفصلاً فى مطلع عام ١٩٥٥ ، نوهت فيه عن احتمال تقدم قوات العدو على هذا المحور ؛ لمهاجمة منطقة شرم الشيخ برأ رغم شدة وعورة الأرض ، إلا أن زحمة الأحداث ، وقلة القوات المتيسرة حالت دون أن تنال تلك التوصية ما كانت تستحقه من الاهتمام .

وقد تحدث الألوف مشنيه إبراهام يوفيه ، الذى وقع عليه عبء قطع هذا الطريق للهجوم على شرم الشيخ ، فقال فى إحدى مقالاته بمجلة بماحنيه الإسرائيلية ، إنه عندما تهيأ لاجتياز قبر عطية ببداية الطريق ، أخذته مشاعر غامضة بما حدث لقوم موسى عليه السلام فى أرض جبال العجمه وأرض التيه منذ نحو ٣٥ قرناً ، وما نالهم من هلاك فيها نتيجة رفضهم دخول أرض الميعاد ما دام فيها القوم الجبارين ، فحدثته نفسه أن يقول لذيان مثلما قالوا لنبيهم " اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون " ثم يمضى يوفيه فى وصف ما صادفه من أهوال داخل مدق الهلاك ، حتى خرج منه قرب قرية نبق ، ولم يبق لديه شك فى أنه السبب فى هلاك القوم !(٣)

طبوغرافية مدق المهالك

يمر محور تقدم اللواء ٩ الميكانيكى من رأس النقب إلى شرم الشيخ بخمس مراحل من الأراضى ذات الطبيعة المختلفة والتضاريس المتباينة ، على النحو التالى :

١ - المرحلة الأولى من رأس النقب إلى عين الفرطاجة لمسافة ١٠٠ كيلو مترا تقريبا فى أرض رملية ، تسمح بالتحرك بسرعة ١٠ - ١٥ كيلو متراً فى الساعة ، ثم ينحدر المدق بعد عين الفرطاجة الغزيرة التى تتدفق مياهها بجوار المدق ؛ لتروى مساحات متناثرة من الحقول والبساتين الصغيرة الشديدة الخصوبة الوافرة المحصول .

٢ - المرحلة الثانية من عين الفرطاجة إلى نقب الشهيرة لمسافة ١٥ كيلو متراً ، يظل المدق يصعد خلالها التلال بزاوية حادة ؛ حتى يبلغ الذروة عند نقب الشهيرة الواقع على الطرف الشمالى لوادى الغايب . وتتميز الأرض فى هذه المرحلة بالوعورة البالغة الشدة ، والرمال الشديدة النعومة ، وجلاميد الصخرالضخمة بما يهبط بمعدل التقدم إلى أقل من ٥ كيلو مترات فى الساعة ، ويحصره فى المجنزرات والعربات ٦ × ٦ والجيب ، ويجعل السير فيها نوعًا من العذاب .

٣ - المرحلة الثالثة من نقب الشهيرة إلى دهب لمسافة ٥٠ كيلو متراً ، يظل المدق يهبط خلالها بزاوية أقل حدة نحو الجنوب الشرقى ، وتتحسن التربة فتسمح بسرعة تتراوح بين ١٠و ١٥ كيلو متراً فى الساعة ، وتتباعد سلاسل الجبال عن ساحل الخليج عند قرية دهب ، بعد أن كادت تلامس مياهه شمالا ، لتترك سهلاً ساحلياً ضيقاً ، تنتشر فيه أشجار النخيل وبعض المزروعات .

٤ - المرحلة الرابعة من دهب إلى نبق لمسافة ٧٠ كيلو متراً فوق وديان دهب وكيد ؛ حيث يدخل المدق فى مضيق كثير المنحنيات الحادة ، وجلاميد الصخر الضخمة والرمال الناعمة التى تنتشر على حافتيه.

أهمية منطقة شرم الشيخ

طرأت أهمية منطقة شرم الشيخ بالنسبة للسياسة الإستراتيجية العربية عامة ، والمصرية على وجه الخصوص ، بمجرد أن وصلت قوات إسرائيل فى الجولة الأولى إلى أم الرشرش على قمة خليج العقبة ؛ لتنشئ عندها ميناء إيلات كمخرج للدولة إلى البحر الأحمر ، وشرق أفريقيا ، وجنوب شرق آسيا ؛ حيث اعتزمت تنشيط التبادل التجارى وفتح الأسواق للمنتجات المحلية الإسرائيلية .

ثم زادت المنطقة فى الأهمية بإنشاء مكاتب مقاطعة إسرائيل ، والبدء فى إحكام حلقات التعاون العربى لغرض الحصار الاقتصادى على إسرائيل ، التى كانت منطقة شرم الشيخ من أهم حلقاتها ؛ نظراً لسيطرتها الكاملة على مدخل خليج العقبة .

أضف إلى ما سبق ، وجود جونة طبيعية بالشرم ، تصلح لرسو السفن المتوسطة الحمولة ، وأرض هبوط يمكن تجهيزها لتعمل مطاراً حربيًا لابأس به .

إلا أن أغلب العبء وقع على مصر التى قامت باستئجار جزيرتى تيران وصنافير من المملكة العربية السعودية ، مقابل إيجار اسمى حتى تصبح مياه مدخل الخليج مصرية خالصة يحق لها السيطرة البحرية عليها · وبمجرد أن اكتسبت مصر هذا الحق القانونى ، قامت بقفل الخليج فى وجه الملاحة الإسرائيلية ، كما فرضت التفتيش البحرى على كافة السفن التى تطلب المرور فى المضيق ، فاكتسبت منطقة شرم الشيخ تبعًا لذلك أهمية سياسية وعسكرية كبيرة ، واستمرت الدبلوماسية المصرية تعلن أنه على المعترض أن يحتكم إلى محكمة العدل الدولية بلاهاى ·

هيكل الدفاعات المصرية [٤]

ظلت منطقة شرم الشيخ تخضع للقيادة الشرقية ؛ حتى أممت مصر شركة قناة السويس ؛ فانتقلت بعدها إلى القيادة العامة بالقاهرة ، التى خصصت للمنطقة القوات التالية :

القوات البرية

الكتيبة ٢١ المشاه وكتيبة حرس وطنى من ٢٠٠ فرد ، وبطارية مدفعية ساحلية من مدفعين عيار ٦ بوصات بطئ التعمير ، وتروب خفيف مضاد للطائرات ، وفصيلة حدود ·

القوات البحرية

الفرقاطة رشيد ومحطة أرصاد وإرشاد بحرى ، وكان الطراد البريطانى نيوفوندلاند قد أغرق الفرقاطة الأخرى دمياط ليلة ٣١ أكتوبر ، قرب المدخل الجنوبى لخليج السويس ، بعد اشتباك قصير بينهما بالنيران ·

وتبلورت فكرة العقيد رؤوف محفوظ زكى قائد منطقة شرم الشيخ فى استمرار الاعتماد على مرابض نيران المدفعية الساحلية ، فى رأس نصرانى ، بقفل مدخل الخليج وتجهيز منطقة شرم الشيخ ؛ لتكون قاعدة إدارية وميناءً بحرياً ومهبطاً للطائرات ، مع الدفاع عنها بالقوات البرية المتيسرة ، وتكوين قوة خفيفة الحركة غزيرة النيران للتعامل مع جنود المظلات حيثما يسقطهم العدو ·

أما الفرقاطة رشيد فكان عليها القيام بأعمال التفتيش البحرى ، وإيقاف السفن التى تحاول المرور عنوة داخل الخليج ·

كما خصصت القيادة العامة مجهوداً جوياً لقوات شرم الشيخ ، وقامت بتطوير مطار الطور ؛ لتستخدمه المقاتلات والمقاتلات القاذفة ، التى تعمل فى معاونة قوات شرم الشيخ وقت الحاجة .

وكلف العقيد محفوظ مجموعة سرية من الكتيبة ٢١ المشاه ، ومعها كتيبة الحرس الوطنى ، وثلاثة مدافع خفيفة مضادة للطائرات بالدفاع عن مطار شرم الشيخ والقاعدة البحرية المجاورة له ضد أى هجوم برى أو بحرى أو جوى يقع عليها ، ولم يكن حجم الأسلحة المتيسرة يسمح بأكثر من ذلك .

كما دفع العقيد محفوظ بفصيلة حدود إلى كل من جزيرتى تيران وصنافير ، وزود كل منها بمدفعين عيار ٢٠ ملليمتر بمهمة تدمير قوات الاقتحام الجوى ، التى يحاول العدو إسقاطها على الجزيرتين ، علاوة على المعاونة فى السيطرة على الممر الثانوى المسمى جرافتون خلال بحر العاشق

ووضع العقيد محفوظ سرية مظلات فى الاحتياطى العام للمنطقة ، التى زودها باكتفاء ذاتى مناسب .

واهتم العقيد محفوظ بفتح نظام للإنذار والمراقبة بالترتيب التالى :

١ - تروب حدود تم توزيعه على نقط إنذار فى طابا، وجزيرة فرعون ، وواسط ، ودهب ، ومرسى أم مريخة ، وصنافير ، وقد زود كل نقطة بالأسلحة الخفيفة والرشاشات ، وطلقات الإشارة ، ووسائل المواصلات السلكية واللاسلكية ، التى كانت على درجة سيئة لكثرة انقطاع الأسلاك ، والشوشرة الإلكترونية الناتجة عن صدى الجبال .

٢ - الكتيبة ٢١ المشاه ، وقد دفعت نقط إنذار فى كل من نبق ، ووادى أساويرة ، ورويسات النمر ، وصفرة العاط ، وجبل تريز ، والرجلات ، وجبل عايدة ، ونقطة الارتفاع ١٠٥ ، وزودتها بالأسلحة الخفيفة والمواصلات السلكية واللاسلكية .

٣ - على امتداد الساحل السعودى .

وقد عقد الاتفاق مع الحكومة السعودية على فتح نقط إنذار فى كل من الشيخ حميد ، ورأس قصبة ، والقصبة مع فتح جهاز لاسلكى سعودى فى شرم الشيخ على نفس تردد نقط الإنذار السعودى ؛ لتلقى بلاغاتها عن الموقف أولا بأول ·

استعدادات وخطط طارئة

ذكر الجنرال موشيه ديّان فى كتابه « قصة حياتى » أن أكثر مهام « قادش » الهجومية طموحًا كانت عملية مجموعة اللواء التاسع الميكانيكى بقيادة الألوف مشنيه إبراهام يوفيه ضد شرم الشيخ ، فرغم أنها جاءت آخر العمليات من حيث الترتيب الزمنى ، إلا أنها كانت أخطرها من حيث العواقب ، التى يمكن أن تترتب على فشل احتلال الدفاعات ، بينما احتمال عودة يوفيه من حيث جاء يقارب الصفر · ثم أكد الجنرال ديّان بأن فتح خليج العقبة للملاحة الإسرائيلية كان الشغل الشاغل للحكومة والهدف الأهم لعملية « قادش » ، بحيث أن عدم تحقيقه كان يعنى ضمنًا فشل العملية كلها (٥) .

وبمجرد تعبئة اللواء فى منطقة حيفا شمال إسرائيل ، تحرك به يوفيه يوم ٢٨ أكتوبر صوب الجنوب إلى جوار حدود الأردن ؛ ليبتعد عن أنظار المصريين · وفى العاشرة من مساء ٣١ أكتوبر ، وصل الرتل شرق الكونتلا فى طريقه إلى رأس النقب ، التى كانت مجموعة من مهندسى الاقتحام وحامية إيلات قد أمنتها لمبيت مجموعة اللواء ٩ الميكانيكى ، عندما وصلها مساء يوم ١ نوفمبر ؛ ليجد أمر ديان قد سبقه هناك؛ ليبدأ التقدم نحو شرم الشيخ ·

وأعاد يوفيه تشكيل قواته فى رتل مسير ، تم تنظيمه فى مقدمة وقوة أساسية ومؤخرة كل من كتيبة ميكانيكية ، كما دفع سرية الاستطلاع أمام القوة بنحو ٣٠ كيلومترًا ، بينما سارت كتيبة مدفعية الميدان وبطارية الهاون الثقيل والتروب الخفيف المضاد للطائرات وعناصر الشئون الإدارية والفنية فى وسط الرتل ، الذى اشتمل على ١٠٤ عربة ٦ × ٦ ، و٣٢ عربة نصف جنزير ، ونحو ٦٠ عربة ٤ × ٤ ، وكان إجمالى القوة التى غادرت رأس النقب مساء ١ نوفمبر لاتزيد عن ١٨٠٠ فرد و٢٠٠ عربة من مختلف الأنواع ، وذلك لحرص يوفيه على التخلص من كل ما لا يلزمه فى مهمته من الأفراد والأسلحة والمهمات ·

وحمل يوفيه معه كفايته من الذخيرة والطعام ، ومياه تكفى خمسة أيام بواقع ٥ لترات لكل فرد و١٠ للعربة ، ووقود وزيوت لمسيرة ٦٠٠ كيلو متر ·

ولم يكن يغيب على يوفيه استحالة إمداده بأية تعزيزات مقاتلة أو دعم إدارى ، خلال مسيرته الطويلة إلى شرم الشيخ ، التى كان عليه أن يعتمد على كفايته الذاتية القتالية والإدارية ؛ حتى ينجح فى إحتلالها وإعداد الميناء والمطار الموجودين بها لاستقبال السفن والطائرات ، التى سوف تحمل إليه المطالب ذات الأسبقية الحرجة .

ويطنب الجنرال ديّان فى قصة حياته فى الحديث عن أهمية الوقت ، وضرورة احتلال شرم الشيخ بغاية السرعة ، قبل أن يصدر قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة بوقف العدوان أو فرض العقوبات على الدول الثلاث المعتدية ، وهو ما دفعة إلى إطلاق سهم جديد من جعبته بدفع وحدة مظلات من مجموعة اللواء ٢٠٢ بمر متلا ؛ للهبوط فى مطار الطور واحتلاله ريثما تدركها براً كتيبة من اللواء ١٢ المشاه ليتولى السجن ألوف روفائيل إيتان قيادة كل هذه القوات للهجوم على شرم الشيخ من جهة الغرب ، بينما تهاجمها قوات إبراهام . من جهة الشمال .

سير الاقتراب (انظر الخريطة رقم ١١)

مجموعة يوفيه[٦]

تركنا الألوف مشنيه يوفيه ولواءه التاسع الميكانيى فى منطقة المبيت حول رأس النقب التى وصلها مساء ١ نوفمبر ، حيث أمره الجنرال ديّان بشد الرحال إلى شرم الشيخ بأقصى سرعة ممكنة .

وفى الساعة الخامسة من صباح ٢ نوفمبر ، بدأ يوفيه المرحلة الأولى من المسيرة حيث كانت الأرض رحيمة به ، فتمكن من التقدم بسرعة لابأس بها إلى أن وصل إلى نقب الشهيرة حوالى الواحدة بعد الظهر ؛ ليبدأ أشق المراحل بالتحرك فوق مرتفع رملى يستحيل على غير العربات المجنزرة أن تجتازه [٧] .

وسرعان ما توقف الرتل بعد أن غاصت عجلات المدافع الميدان عيار ٢٥ رطل إلى محاورها . وبذل الجنود جهوداً خارقة للعادة لمعاودة التحرك ، بعد أن افرغوا بعض الهواء من الإطارات لتخفيف الضغط لأقل قدر ممكن . وبالدفع والجذب والقطر أمكن استئناف الحركة بسرعة لاتتجاوز ٣ كيلو مترات فى الساعة .

ولم يصل الرتل إلى قمة المدق ، رغم هذا الجهد المضنى إلا عند مغرب الشمس ؛

حيث الـقى الجنود أجسامـهم على الأرض ، وقد بلـغ بهم التعـب منتهاه ، فتـركهم يوفيه مضطراً حتى الساعة الثانية بعد منتصف الـليل ، عندما استأنف السير على المدق الهابط إلى الوادى بعـد أن ترك ثـمان عربات ، تعذر إخراجها مـــن الرمـال التى غاصت فـيها حتى الرفارف .

ولم تكن العـشرة كيلومترات التالـية بنفس الوعورة ، لا سيمـا وأن زاوية انحدار المدق كانت لطـيفة ، إلا أن التربة الـهشة حدّت من سرعة الـرتل الذى استغرق خـمس ساعات كاملة ؛ لـيصل إلى قرية دهب عـلى ساحل الخليـج ، حيث توجد أكبر واحـة خضراء فى المنطقة ، تنفس عندها الجنود الصعداء [٨] .

وحدث عند مخرج الوادى غرب دهب ، أول صدام بين رتل يوفيه ونقطة مراقبة الهجانة التى يشغلها عشرة جنود من سلاح الحدود وجهاز لاسلكى . وبعد تبادل بعض الأعيرة التى قتلت عدّة جنود إسرائيلـيين ، تملك البعض سورة الغضب الجامـــح فقتل جـنـود الهجـــانة العشـــرة الذين وقعوا فى الأسر رغم صيحات الاعتراض من زملائهم .

وتوقف يوفيه فى دهب للمرة الثـانية ؛ حتى يتيح لجنوده فترة راحـة طويلة تحت ظلال الأشجار والنخـيل وينابيع المياه الـغزيرة ،وليقوم السائـقون بصيانة وإصلاح العـربات التى كانت فى مسـيس الحاجة إلى أعمال الضبـط والتربيط ، وإعادة التزوّد بـالوقود والزيوت ، التى زاد معدل استهلاكها بسبب طبيعة الأرض الوعرة [٩] .

ووصل إلى يوفيه وهو لايزال فى دهب سفينتا إبـرار بحرى ، تحملان إليه الوقود الذى جاء فى موعـده ليسد نقصًا كبـيرًا ، لم يكن رئيس الشـئون الإدارية يتوقعه ، عـندما وضع تقديراته عن الاستهلاك المحتمل .

فى السادسـة مساءً ، أصدر يوفيه أمره باستئناف التحرك ، فقـطع المرحلة الثـالثة من المسيـرة فـى ثمان ســاعات ، ووصل إلى وادى كيد فـى الثانية بـعد منتصف لـيلة ٣ / ٤ نوفمبر ؛ حيـث تحوَّل المدق إلى مضيق لا يزيد عرضة عـلى المتـرين ، ويصعـــد بزاوية حادة إلى قمة بالغة الضيق لايمكن للعربات اجتيازها [١٠] .

وأطلق يوفيه مهندسية وجنوده ليفجروا الصخور ، ويزيحوا جلاميد الصخر حتى يسمح المضيق بمرور العربات . ولما فرغوا من هذه المهمـة الشاقة ، استأنف الرتل السير حتى تورط فى حقل ألغام كان العقيد محفوظ قد أمر بزرعه ، ثم انهارت طلقات مدافع الماكينة والبازوكا

والقنابل اليدوية من نقطة الإنذار على مدخل الوادى ، فأجبرت القوات المتقدمة على التوقف والارتداد للخلف للاحتماء وراء انحناءة الطريق . وبمجرد أن لاح الفجر ، دفع يوڤيه جماعة استطلاع لتفتيش المنطقة ، وبعد أن نجحت فى اجتياز حقل الألغام دون أن تلحق بها خسائر تذكر وصلت إلى موقع نقطة الإنذار المصرية ؛ لتجدها خالية من جنودها ، الذين انسحبوا قبل أول ضوء ، وملأوا مخرج الوادى بالألغام المبعثرة ، ثم اندفع الرتل خارج الوادى فوصل قرية نبق حوالى التاسعة صباحًا ؛ حيث تركهم يوڤيه يستريحون للمرة الثالثة عند ساحل الخليج حتى الظهر[١١] .

ولم يعد يفصل يوڤيه وجنوده عندئذ عن هدفهم بشرم الشيخ ، سوى أربعين كيلو متراً من الأرض الصالحة للتحركات ، بعد أن قطعوا ٢٥٠ كيلو مترًا فى مدق المهالك خلال ثلاثة أيام وليلتين . وكان وقع وصول مجموعة اللواء التاسع الميكانيكى إلى مشارف دفاعات شرم الشيخ من جهة الشمال ، مفاجأة شديدة للعقيد محفوظ ومرؤوسيه .

إلا أنه مثلما فاجأ يوڤيه محفوظاً بوصوله من جهة الشمال ، فقد فاجأ محفوظ يوڤيه بسابق إخلاء بمنطقة رأس نصرانى عندما وصلها ، وبتدمير المدفعين الساحليين الموجودين بها على قواعد خرسانية ثابتة يستحيل نزعهما منها .

مجموعة إيتان[١٢]

نجح السهم الذى أطلقه الجنرال ديان من جعبته ليستبق به الزمن فى احتلال منطقة شرم الشيخ ، من إتجاه الشمال والغرب فى وقت واحد .

فبينما كانت مجموعة يوڤيه تستعد ضحى الرابع من نوفمبر لقطع المسافة الباقية بينها وبين شرم الشيخ من الشمال ، كانت مجموعة إيتان تستعد فى نفس الوقت لقطع ما بقى بينها وبين شرم الشيخ من الغرب .

وكان لوصول مجموعة إيتان إلى مشارف شرم الشيخ ، قصة لا تقل إثارة عن مجموعة يوڤيه .

وقد كان ديّان قد أمر يوم ١ نوفمبر بإسقاط سريتين من الكتيبة الثالثة المظلات فى مطار الطور ، بينما يستعد ألوف روفائيل إيتان للتقدم بسريتين أخريين من الكتيبة الأولى المظلات ؛ لينضم براً على المظليين الذين يتم إسقاطهم هناك .

وفى الساعة الثانية من بعد ظهر ٢ نوفمبر ، كان المظليون قد استولوا على المطاز ، الذى سرعان ما أعدوه لهبوط ٢٥ طائرة نقل تحمل كتيبة مشاه من اللواء ١٢ المشاه ، وبعض الإمدادات من الذخيرة والأسلحة .

وفى فجر ٣ نوفمبر ، تقدم إيتان بسريتى المظلات براً عبر وادى سدر ؛ حيث استولى على معسكر حقول البترول ، ثم واصل التقدم نحو بلدة الطور فبلغها عند الظهر ؛ ليبادر بضم كافة القوات الإسرائيلية الموجودة بالمنطقة فى مجموعة رتل واحد ، تقدم بها نحو شرم الشيخ فى نفس الوقت الذى كانت قوات يوفيه تغادر منطقة دهب فى طريقها إلى قرية نبق ، بينما الجنرال ديان يحلق بطائرته فوق رتل يوفيه ، يكاد يلهب ظهره لبذل المزيد من السرعة لحسم المعركة فى صباح الغد .

وفى وقت متأخر من عصر ٣ نوفمبر ، وصلت مجموعة إيتان إلى المدخل الغربى لمنطقة شرم الشيخ ، وفى أعقابها عربة الجنرال ديان الذى وقف على تل مجاور للمدخل ينظر إلى الجبال بألوانها التى تخطف البصر ، يحف بها البحر بألوانه الزمردية ، وكأنما مئذنة الجامع البيضاء تخرج من لجته لتصعد إلى السماء .. ويقول ديان فى قصة حياته أنه لولا الحرائق وأعمدة الدخان التى كانت تلف المنطقة بسحاب كثيف لاعتبر هذا المنظر أجمل ما وقع عليه نظره [١٣] .

معركة شرم الشيخ :

بدأت الغارات الجوية على منطقة شرم الشيخ فى الساعة التاسعة من صباح ٢ نوفمبر ، ثم راحت تشتد عنفاً وكثافة ، واستمرت تطلق القنابل والصواريخ والنابالم ونيران الرشاشات على المواقع الدفاعية ، على امتداد الثلاثة أيام التالية [١٤] .

وقبل أن تغادر الطائرات المنطقة ، نجحت المدافع الخفيفة المضادة للطائرات فى إسقاط طائرتين من طراز المستير أمكن أسر أحد طياريها ، وإرساله على الفور فى مركب شراعى إلى القاهرة ضمن مجموعة من الجرحى والمرضى المصريين[١٥] .

ومع حلول الظلام ، جاءت طائرة الحرب النفسية المعتادة لتكرر ما سبق أن فعلته فى أم قطف ؛ إذ راحت تهدد الجنود بسوء المصير إن لم يبادروا بالاستسلام "بشرف" !

وفى صباح ٣ نوفمبر ، عادت المقاتلات القاذفة إلى المنطقة حيث نجحت فى تدمير

مدفعين من المدافع الأربعة المضادة للطائرات عيار ٣ بوصات برأس نصرانى ، كما حطمت الورشة الفنية ومحطة تحلية المياه ، وكل خزانات المياه العذبة[١٦] .

وقبل آخر ضوء ، شاهد جنود شرم الشيخ أربع طائرات مستير ، وهى تنقض على المدمرة البريطانية كرين قرب مدخل خليج العقبة حيث كانت تقوم بمهام الداورية البحرية مع الطراد نيوفوندلاند ، وراحت كل الطائرات تقصف المدمرة المذهولة بثمانية وثلاثين صاروخًا أشتعلت فيها النيران . وأرسل العقيد محفوظ برقية إلى قائد القوات الجوية بالقاهرة يهنئه بهذا الإنجاز العظيم الذى كان يظن أن الطائرات المصرية هى التى قامت به . ولم تنس الحكومة الإسرائيلية الاعتذار لحليفة التواطؤ عن هذا الخطأ غير المقصود ، الذى أودى بحياة الكثير من البحارة البريطانيين ، مثلما سوف يودى بعد ذلك بحياة العشرات من بحارة سفينة التجسس ليبرتى فى جولة صيف ١٩٦٧ [١٧]

ومنذ الساعة الحادية عشرة من صباح ٣ نوفمبر ، كان العقيد محفوظ قد تأكد من واقع برقية القيادة العامة التى وصلته للتو ، ومما سبق أن أدلى به الطيار الأسير ، أن هجوما رئيسيا يتجمع حول نبق ؛ ليبدأ الزحف جنوبا تحت مظلة جوية كبيرة ، وأن مجموعة قتال أخرى فى طريقها إليه من جهة الطور ، فأرسل الفرقاطة رشيد التى لم تعد تلزمه إلى الساحل الشرقى للبحر الأحمر ؛ لتلجأ إلى إحدى موانيه بعد أن حشد على سطحها الجرحى والمرضى والمدنيين وغير المقاتلين ؛ ثم تأكدت أخبار تقدم العدو مرة أخرى من البلاغ اللاسلكى لنقطة مراقبة دهب ، التى أفادت فى الساعة الثانية عشر والنصف ظهراً أن العدو احتل القرية .

تصرفات اللحظات الأخيرة[١٨]

عقد العقيد محفوظ مؤتمرا لضباطه ؛ لدراسة الموقف الجديد ، وإتخاذ الإجراءات اللازمة حياله . واتفق الحاضرون على أن أبرز العوامل المؤثرة على موقفهم بشرم الشيخ أصبحت تتلخص فى الآتى :

١ - إن تقدم العدو من الشمال والغرب نحو شرم الشيخ ، مع وجود قطع الأسطول البريطانى قرب مدخل الخليج يعنى أن حصاراً كاملاً ، قد التف برا وبحرا حول المنطقة ، بينما طائرات العدو تملك السيادة الجوية فى سمائها .

٢ - إن استمرار توزيع قوات الدفاع على ثلاثة مواقع دفاعية منعزلة ، عن بعضها البعض فى رأس نصرانى وجبل عايدة وشرم الشيخ ، يعنى أن الدفاع سوف يكون ضعيفًا فى كل مكان .

٣ - إن قوة جبل عايدة المكلفة أساساً بالعمل ضد جنود الجو ، لم يعد هناك احتمال لإبرارهم فى المنطقة ، بعد أن إقتربت القوات البرية المتفوقة من الشمال والغرب .

٤ - إن تعرض المنطقة للحصار يجعل الميناء والمطار عديمى الفائدة ، إذ لن تتمكن أى سفينة أو طائرة مصرية من الوصول إليهما ، طالما ظل الموقف البحرى والجوى على ما هو عليه الأن .

٥ - إن الحل الأمثل لمواجهة هذا الموقف ، هو تجميع كافة القوات المقاتلة فى منطقة شرم الشيخ ؛ حيث تدار المعركة لآخر طلقة .

الخطة الدفاعية الجديدة[١٩]

وبمجرد أن انفض المؤتمر ، كان العقيد محفوظ قد رسم خطتة الجديدة على أساس قبوله الحصار فى منطقة شرم الشيخ ، وإعادة تنظيم هيكل الدفاع على النحو التالى :

١ - موقع شرم الشيخ ، وتحتله الكتيبة ٢١ المشاه عدا سرية ، مع دفع فصيلة مشاه إلى المطار لتأمينه ، وفتح نقط ساترة كل بجماعة مشاه فى النقطة ١٠٥ ورأس نصرانى .

٢ - الاحتياطى العام وقد احتفظ العقيد محفوظ بسرية مشاه ؛ للقيام بالهجوم المضاد فى اتجاه رأس نصرانى أو الطور طبقًا لتطور القتال .

ثم بدأ القتال[٢٠] (٢٤ ساعة فيما بين العاشرة من صباح ٤ نوفمبر والعاشرة من صباح ٥ نوفمبر ١٩٥٦)

بلغ التمهيد النيرانى بالمدفعية والطائرات ذروته فى الساعة العاشرة صباح ٤ نوفمبر ، عندما اقتحمت مجموعة اللواء ٩ الميكانيكى دفاعات رأس نصرانى لتجدها خالية من الجنود .

وكانت المفاجأة شديدة الوقع على يوڤيه الذى أضاع وقتًا ومجهودًا نيرانيًا كبيرًا ضد موقع ليس به أحد ، فبادر إلى إعادة تجميع قواته لمواصلة التقدم نحو شرم الشيخ .

ووصلت مقدمة يوڤيه فى الساعة ١٢ ظهرا أمام النقطة ١٠٥ ؛ لتجدها محتلة بجماعة مشاه مدعمة بالرشاشات المتوسطة ، التى فتحت عليها نيرانها ؛ فأوقعت بالموجة الأمامية عدة خسائر .

وتوقف الهجوم لتأتى الطائرات ، وتقصف النقطة بنيرانها الكثيفة التى أوقعت بالجنود خسائر شديدة . ولما حاول المقدم حنا نجيب قائد الكتيبة أن يعزز النقطة بفصيلة مشاه ومدفعى ماكينة ، قصفت الطائرات أغلب جنودها ؛ كما دمرت المدفعين .

تم استأنف يوڤيه هجومه فاكتسح النقطة ١٠٥ حوالى الساعة الثانية عصرًا ليجد كل جنودها شهداء أوجرحى ، بعد أن عطلوا هجومه لأكثر من ساعتين . وبسقوط النقطة ١٠٥ تهيأ للعدو مركز ملاحظة جيد لمراقبة الدفاعات المصرية بشرم الشيخ ؛ نظرا لارتفاع النقطة عن مستوى تلك الدفاعات .

وتابع يوڤيه هجومه فى الثالثة عصرا ؛ ليقابل بنيران شدية محكمة التصويب من السفوح الغربية للتلال ؛ فأضطر إلى التوقف ريثما تقوم الطائرات بالمهمة المعهودة . وتوالت الغارات بالقنابل والصواريخ والنابالم ؛ فدمرت المخازن ومستشفى الميدان ، رغم علامة الهلال الأحمر المميزة على سطحه ، كما أشعلت النيران فى مخازن الوقود . واستمر الضرب الجوى حتى آخر ضوء ٤ نوفمبر ، الذى أوقع بالدفاعات دماراً كبيراً وخسائر بشرية شديدة للغاية .

إعادة التنظيم[٢١] (انظر الخريطة رقم ١٢)

حل الظلام فراحت القوات المدافعة تصلح من شأنها ، وتعيد المواصلات الخطية التى مزقتها قنابل الطائرات ، بينما العقيد محفوظ يعيد النظر فى موقفه ، ويقرر تعديل الحد الأمامى للجانب الشرقى لدفاعاته حول طريق شرم الشيخ - رأس نصرانى ، بعد أن صار يشكل بروزاً يتيح للعدو فرصة تطويقه تحت جنح الظلام ، فقام بإعادة السرية التى تحتله نحو نصف كيلومتراً للخلف ، دون أن يشعر العدو بذلك .

وحتى لا تفقد القوات كل الذخائر الموجودة بالمخازن بالضرب الجوى ، أصدر محفوظ

تعليماته بتوزيع ما بقى منها سليماً على الأفراد ومرابض النيران ، فظلت حملات اليونيفرسال تؤدى تلك المهمة بكل إخلاص حتى بزغ ضوء الفجر .

وفى نفس الوقت ، كان الألوف مشنيه يوفيه يعيد تنظيم قواته ؛ ليشن بها هجوماً ليلياً على الدفاعات المصرية ، قبل أن تتاح لها فرصة تحسين أوضاعها ، أو الإفاقة من قصف واشتباكات النهار السابق ، لاسيما وأن معظم جنود اللواء التاسع الميكانيكى كانوا من المهرة فى القتال الليلى ، على عكس القوات المصرية التى تجيده نهاراً .

صد الهجوم الليلى الأول :[٢١]

بعد أن أعاد يوفيه تنظيم قواته دفع مجموعة كتيبة ميكانيكية فى الساعة الثامنة والنصف مساءً ؛ للزحف على امتداد طريق رأس نصرانى شرم الشيخ ؛ بهدف اقتحام دفاعات السرية التى كان العقيد محفوظ قد أعادها نصف كيلومتر للخلف . فلما وصلت إليها الكتيبة المهاجمة ولم تجد بها أحداً ظن يوفيه أن الدفاعات انهارت وتركها جنودها ، فأمر بالتقدم العام نحو شرم الشيخ .

إلا أنها ما إن دخلت فى المرمى المؤثر ، حتى فوجئت بنيران الدفاعات تنصب عليها من كل ناحية ، فأوقعت بها خسائر كثيرة اضطرتها للتوقف ، وراح الجنود يبحثون عن سواتر يحتمون خلفها من شدة النيران . وبعد مجهود شاق ، نجح يوفيه فى سحب الكتيبة للخلف ، ثم راح يعيد تنظيم قواته للمرة الثانية تمهيداً لهجوم جديد .

ولما أخطر العقيد محفوظ القيادة العامة بالقاهرة عن هذا الهجوم الليلى الأول تلقى برقية تهنئة حارة ختمها القائد العام بالتصريح له بتدمير الأسلحة الثقيلة والمخزونات ، والتخلص من المعركة ، قبل أول ضوء ، إلا أن محفوظاً احتفظ بتلك البرقية التى حرص على ألا يُطلع عليها أحداً من مرؤوسيه ؛ حتى لا تؤثر على إصرارهم على مواصلة القتال[٢٢]

وكان مما يلفت النظر أنه بدلاً من أن تحثه القيادة العامة على الاستمرار فى التشبث بالدفاعات خاصة - وقد كانت المعركة السياسية فى الأمم المتحدة ، قد قاربت أن تؤتى ثمرتها وتجبر القوات المعتدية على وقف العدوان - إذ بالقائد العام يثبط همته ، بل ويحضه على التراخى والتخلص من المعركة ، التى لم يعد أمامه سبيل واحد للتخلص منها !

صد الهجوم الليلى الثانى[٢٣]

قرر يوڤيه أن يشن هذه المرة هجوماً ليلياً مدبراً ؛ ليحتل المنطقة الواقعة بين طريقى شرم الشيخ ورأس نصرانى ، وشرم الشيخ والطور . وبعد منتصف الليل ، دفع كتيبة ميكانيكية تحت ستر نيران المدفعية والهاونات ؛ لتقتحم تلك المنطقة ، ولكنها سرعان ما تورطت فى حقول الألغام ، قبل أن تصل إلى مشارفها ، ثم انهالت عليها نيران الأسلحة الصغيرة بكثافة شديدة ، ومن عدة إتجاهات .

ونظراً لأن الأرض فى تلك المنطقة كانت مفتوحة ومنبسطة وخالية تماماً من السواتر . . فقد تكبدت الكتيبة الميكانيكية المهاجمة خسائر شديدة ، وقتل قائدها وستة من قادة جماعاتها ،[٢٤] كما أصبحت غير قادرة على استمرار التقدم للأمام أو النكوص على الأعقاب .

وعندما بلغ الخطر مداه ، أصدر لها يوڤيه الأمر بالانسحاب حوالى الساعة الرابعة والنصف فجر يوم ٥ نوفمبر ، كما أمر مدفعيته وهاوناته بمساعدتها بالنيران ، لتتخلص من وضعها الحرج ، كما دفع قوة من الحاملات المدرعة للمساعدة

الجنرال ديان يلقى بثقله[٢٥]

اقترب الفجر ، وأصبح أمر إيقاف النيران أو فرض العقوبات على وشك الصدور من الأمم المتحدة بين لحظة وأخرى ، وأصر الجنرال ديان على احتلال مدخل الخليج قبل ظهر ٥ نوفمبر ، مهما كانت العراقيل . وكانت بلاغات يوڤيه تثير قلقه بما تحمله من معلومات متناقضة تزف حيناً بشرى بدء إنهيار المواقع الدفاعية ، ثم تعود لتؤكد تماسكها ، بل ونجاحها فى صد وتحطيم الهجمات الإسرائيلية المتتالية .

وللتغلب على ذلك ، قرر الجنرال ديّان الأتى :

١ - تركيز مجهود جوى بالغ الشدّة فوق دفاعات شرم الشيخ ، بمجرد أن يبزغ فجر ٥ نوفمبر .

٢ - تنسيق الهجوم على تلك الدفاعات من ناحية الشمال والغرب فى حركة كماشة قوية .

٣ - أن يسيطر رئيس الأركان العامة بنفسه على المعركة ، وخاصة معركة المظليين .

وفى أول ضوء ، كانت الطائرة تقل الجنرال ديان إلى الطور ، حيث استطى إحدى العربات ، وتوجه بها إلى شرم الشيخ ؛ ليلحق بمجموعة قتال إيتان ، ويشرف على دفعها للقتال . ويذكر ديان أنه صادف بعض الجنود المنسحبين من شرم الشيخ وهو فى طريقه إليها ويقول إنهم لو فتحوا النيران على عربته العزلاء ، لجعلوا جسمه مثل المنخل [٢٦] .

الجنرال ديان وإلى جانبه الألوف سمحونى وألوف مشنيه (العقيد) ابرهام يوفيه أثناء قراءة أمر بن جوريون للجنود الإسرائيليين بشرم الشيخ

وعند الضحى ..... سقط الشرم[٢٧]

جاءت المقاتلات القاذفة مع ضوء الصباح ؛ لتلقى حمولتها على المواقع الدفاعية ، التى لم يحظ جنودها بلحظة من الراحة أو الهدوء طيلة الليلة الماضية . وكانت الغارات هذه المرة من الشدَّة والإحكام بما دفع الجنرال ديَّان أن ينوه فى يومياته«بأن العنصر الحاسم فى سقوط الشرم كان السلاح الجوى الإسرائيلى »[٢٨]

وصاحب تلك الغارات تمهيد مدفعى ، أحكمت نيرانه نقطة الملاحظة فوق التل ١٠٥ ، علاوة على نقطة ملاحظة أخرى جوية ، ولم يكن العقيد محفوظ يملك ولو مدفع ميدانى واحد ؛ ليرد به على تلك النيران، التى استمرت تمزق دفاعاته حتى الساعة الثامنة صباحاً .

وكان الألوف مشنيه يوفيه قد أرسل فى الساعة السادسة طائرة بايبركب ؛ ليطلب من إيتان أن ينسِّق معه الهجوم على الدفاعات ، بمجرد انتهاء فترة التمهيد النيرانى .

وفى الثامنة وخمس دقائق ، تقدمت مجموعة اللواء التاسع الميكانيكى نحو الجانب الشمالى للموقع الدفاعى ، والتفت حوله ؛ لتتجنب حقل الألغام الوقائى الذى يحميه ، ثم هاجمت الموقع الغربى بوادى خشبى من الخلف ؛ فتمكنت من الاستيلاء على المرتفعات الموجودة فى منتصفه ومؤخرته [٢٩] .

ثم وصلت مقدمة مجموعة قتال إيتان إلى نفس الموقع فى الساعة الثامنة والنصف ؛ حيث راحت تهاجمه من جهة الغرب ، فوقع الموقع بذلك بين فكى كماشة ، بقوة اللواء التاسع الميكانيكى من الشمال وقوة المظليين من الغرب ، وكلها داخل حاملات مدرعة نصف جنزير .

واستمر الموقع يبذل غاية جهده فى صد الهجوم حتى الساعة التاسعة صباحاً ؛ عندما تمكن الأعداء أخيراً من اجتياحه ، فانفتح الطريق على مصراعيه إلى قلب منطقة شرم الشيخ ، التى قام العدو بالاستيلاء عليها فى ضحى نفس اليوم ، بينما كان الجنود المصريون يصعدون الجبال المرتفعة ، وهم يطلقون بنادقهم على العدو ، وقد استمرت تلك النيران بصورة متقطعة حتى الظهر [٣٠] .

ووقع العقيد محفوظ ، وأركان حربه الرائد عبد القادر عيد ، والمقدم حنا نجيب قائد الكتيبة ٢١ المشاه ، ونحو ثلاثمائة من الرتب الأخرى فى الأسر ؛ حيث عاملهم الإسرائيليون بغاية الصلف والغلظة على خلاف ما تقضى به الأعراف العسكرية المرعية ؛ فكانت فترة الأسر فى شرم الشيخ - قبل نقلهم إلى معسكر الأسرى فى إسرائيل - مشحونة بالتحرشات والعنف الذى ليس له مبرر .

وبعث بن جوريون برسالة تهنئة لجنوده قرأها عليهم الجنرال موشيه فى ناحية من أرض مطار شرم الشيخ ؛ حيث عقد الاحتفال بانتهاء القتال ، جاء فيها ما يلى: [٣١]

« لقد أتممتم أيها الجنود الشجعان أكبر عملية عسكرية فى تاريخ شعبنا وأكثرها فخاراً ، فبنجاح جيش الدفاع الإسرائيلى فى اجتياح دفاعات العدو ، استرجعتم لنا مملكة سليمان التى سوف تعود إيلات لتصبح ميناؤها الرئيسية فى الجنوب ، وتسترد تيران إسمها القديم « يوتفات » ، التى كانت تعرف به منذ ١٥٠٠ عام ، وتنضم إلى وطنها الأم - « إمبراطورية إسرائيل الثالثة » [٣٢] .

وبعد أن هتف الحفل ثلاثاً للإمبراطورية الجديدة ، استقل سمحونى الطائرة عائداً إلى تل أبيب ؛ حيث اعتزم أن يفرغ كل ما فى صدره من مشاعر ضد رئيس الأركان ، الذى دأب على التدخل فى شئونه ، وتوجيه الألفاظ الخشنه لـه ولمرؤسيه ، إلا أن القدر شاء أن يكون سمحونى ومساعده المقدم أشير دروم هما آخر ضحايا العدوان الثلاثى ، إذ أسقطت المدفعية الأردنية المضادة طائرته فوق بتلال عجلون[٣٣] ، وعثر بين حطامها على اوراقه الشخصية التى سجل فيها ملاحظاته ومشاعره .

وإذا كانت كلمه بين جوريون التى وجهها للجنود قد عبرت عن فرحة إسرائيل بنصرها العسكرى . . فإن صدمة الهزيمة السياسية التى جاءت بعدها ؛ لتجبر إسرائيل على النزوح عن كل الأراضى المحتلة بالعدوان ، جعلت تلك الإمبراطورية الثالثة اقصر الإمبراطوريات عمراً فى التاريخ .

التعليق :

أبدت الأركان العامة الإسرائيلية تفهماً كاملاً للعوامل السياسية ، المؤثرة على عملية الاستيلاء على مدخل خليج العقبة ، قبل أن يصدر قرار الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار فى المسرح ، أو قبل فرض العقوبات على من يمتنع من حكومات العدوان الثلاثى من الرضوخ له .

وعلى النقيض من ذلك تصرَّف القائد العام المصرى ؛ إذ راح يحض العقيد رؤوف محفوظ على تدمير الأسلحة والمخزونات ، والتخلّص من المعركة التى لم يكن يتوفر لها منفذ واحد للتخلص منها ، إلا قبول الاستسلام والوقوع فى الأسر . وما من شك أن رسالة تحمل عكس ما حملته الرسالة الأولى ، كانت أوفق وأكثر ملاءمة للموقف السياسى والعسكرى الراهن ، ولو نجح محفوظ فى التمسك بدفاعاته حتى المساء ؛ لتغير مسار الأحداث وانقلبت الدائرة على العدو ، ولفاز جنود شرم الشيخ بالثناء والنصر العظيم .

ويبدو أن الصعوبات التى توقعتها القيادة المصرية لهجوم ، يأتى إلى منطقة شرم الشيخ من جهة الشمال ، جعلها تركن إلى استبعاده ، وهو ما دفع نفس الأركان العامة الإسرائيلية إلى القيام به رغم تأكدها من أن محور التقدم بالغ الوعورة ، وبدلاً من أن يدفعها ذلك الى صرف النظر عن التورط فيه ، فقد حثها على دفع مجموعة اللواء ٩ الميكانيكى ؛ لاجتيازه لما

سوف يحققه من مفاجأة الدفاعات المصريـــــة مـــن اتجاه ، لم تكن تتوقعه اعتماداً على أن تحقيق المفاجأة يضمن نصف النصر .

وكانت الأركان العامة الإسرائيلية مطمئنة إلى نجاح الهجوم على شرم الشيخ ، بعد أن تم حصارها مـن كل اتجاه ، وامتلكت طـائرات إسرائيل السـيادة الجوية فى سماء المـنطقة ، ولهذا فقد أسرفت فى دك الدفاعات بقنابلهـا ، ونشر الدمار والنيران فى كافة أرجائها ، قبل أن يبدأ الجنود اقتحام الدفاعات ، التى يكـون القصف الجوى والبرى قد أنهك قواها وحطم معنوياتها وتجهيزاتها الدفاعية .

والوقع أن سلاح الطيران الإسرائيلى قام بـالعبء الأكبر على نحو ما أكّده الجنرال ديّان فى يومياته ، وسبقت الإشارة إليـه ؛ فلولا نجاحه فى السيطره الجوية ، لما أمـكن إسقاط المظلـيين لتجهيـز مطار الطور لاستـقبال كتيـبة مشاه كاملـة بطريق الجو ، ولما أمـكن أيضًا لمجموعة اللـواء ٩ الميكانيكى أن تجتاز مـدق المهالك ، الا بخسائر فـادحه ووقت أطول كان يكفى لإضاعة الفرصة على الأركان العامة لإنهاء المعركة قبل صدور قرار وقف النيران

ولا جدال فى أن هـدف عملية " قادش " الأول والأهـم ، كان الاستيلاء علـى مدخل خليج العقبة ؛ لفتحه للملاحة الإسرائيلية وللسفن الأخرى ، التى تحمل البضائع إلى إيلات أو تنقلـها من تلك الميـناء إلى شرق أفريقـيا وجنوب شرق آسيـا . ولا جدال أيضًا فى أن عامل الزمن كان حاسمًا وحيويًا ؛ إذ لم تكن الحكومة الإسـرائيلية تستطيع مواصلة القتال ، بعد أن صدر قرار الجمـعية العمومية للأمم المتـحدة بوقفه يوم ٦ نوفمبر ؛ فـلو تمكنت قوات العقيد رؤوف محفوظ من الصمود حتى ذلك الوقت ، لدخلت التاريخ من أوسع أبوابه .

بن جوريون
يستعرض القوات الإسرائيلية فى سيناء

إلاّ أن واقع الأمر أن محفوظًا ومرؤسيه لم يكونوا على علم بتطورات الموقف السياسى بالأمم المتحدة ، كما أن برقيات القائد العام التى كانت تصلهم من القاهرة لم تكن تحث على مواصلة الصمود بل التخلص من المعركة . ومن هنا يظهر الضرر الكبير الذى ترتب على ذلك ، والذى كان أحرى بالقائد العام أن يسلك عكسه تماماً ؛ لاسيما وأن الموقف القتالى لم يكن يترك لقوات رؤوف محفوظ فرجه فى الحصار المحكم حولها ، يمكن التسلل منها خارج حلقة الحصار .

ومهما كان عزم محفوظ على استمرار التشبّث بدفاعه ، فليس ثمة شك فى أن برقيه القائد العام سالفة الذكر ، قد تركت ندبة فى وجدانه ، خشية أن تكون الخسائر المترتبة على الصمود أفدح من الفوائد التى يجنيها منه ، وهو ما يؤكد أن تلك البرقيه خانها التوفيق .

وعلى الرغم من أننا سبق أن اقررنا بأن المعارك والعمليات لا تكسبها الآمال والأمنيات ، إلا أن معركة سبقت فى أقصى شمال المسرح إبان الجولة الأولى عام ١٩٤٨ كانت ظروفها الجوية والبرية شديدة الشبه بمعركتنا هذه فى أقصى الجنوب ، بما يبرر عقد المقارنة بينهما ، حيث نجح أبطال الفالوجا على امتداد ١٢٥ يوماً من الحصار ، الذى كانوا يفتقرون فيه إلى الذخائر والأغذية والأدوية الطبية والأدوات الهندسية ، فى أن يصمدوا لهجمات برية متفوقة ، وتحت سيطرة جوية كاملة . وفى يوم ٢٤ فبراير ١٩٤٩ ، خرج أبطال الفالوجا وهم يحملون أعلامهم فوق الرؤوس ، وأسلحتهم على الأكتاف ، لتستقبلهم أمة العرب بالحفاوة والتقدير والامتنان ، ويسجل التاريخ بسالتهم على أنصع الصفحات ، على حين خرج جنود شرم الشيخ إلى الأسر ، والمعاملة الفظة ، والتحرش الذى ليس له سبب ، وشتان بين الموقفين .

تذييل

خمسون شيكل مع إيقاف التنفيذ

يشششخار شدمى يبطش با' هالى كفر قاسم

مقدمة

لقد اتصف القتال على الجانب الإسرائيلى بالتجاوز فى الوحشية ، والخروج على آداب الحرب ، والانزلاق فى هذا الطريق إلى درك الإبادة الجماعية للأسرى المصريين والأهالى المدنيين .

وقد سجل الجنرال إيدسون بيرنز - رئيس لجنة الهدنة المصرية الإسرائيلية المشتركة - كثيراً من تلك الجرائم الدموية فى كتابه « بين العرب وإسرائيل » ، ومنها مذبحة كفر قاسم التى جاء ذكرها فى الصفحتين ١٩١ ، ١٩٢ ، ثم فى الصفحات ٣٠٣ - ٣٠٧ من كتابه سالف الذكر .

وفيما يلى موجز لأحداث تلك المذبحة على سبيل المثال لا الحصر .

ساعة الصفر

تتابع تحليق طائرات الداكوتا فى الجو ، وارتفعت عجلات الطائرة السادسة عشرة والأخيرة عن ممر قاعدة حاتسور الجوية ، بينما تتجه مقدمة هذا التشكيل الجوى نحو الجنوب الشرقى ؛ تعمية للأنظار عن المكان الحقيقى التى تقصده لإسقاط الكتيبة ٨٩٠ مظلات ، فوق المدخل الشرقى لممر متلا ؛ لتخلق الذريعة لحرب العدوان الثلاثى على مصر ، بافتعال حالة صراع مسلح على مشارف قناة السويس ، تعرض استمرار الملاحة فيها لخطر التوقف .

هكذا حدد الجنرال موشيه ديّان ساعة الصفر لحملة قادش - الساعة الخامسة عصر الاثنين ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ، إلا أن القدر أراد لها أن تقع فى ساعة أخرى ومكان آخر .

فبينما طائرات الداكوتا تسبح فى الجو ، كانت قرية كفر قاسم تسبح فى دماء ٤٩ شهيداً عربياً من أهلها فى مذبحة دموية ، تقع مسؤوليتها على عاتق مجموعة من ضباط إسرائيل بزعامة العميد يششخار شيدمى ، وتشكل وصمة عار لا تمحوها الأيام من سجل جرائم إسرائيل .

وبمجرد أن علمت الأركان العامة بمدى الجرم الذى ارتكبه أفرادها فى كفر قاسم ، فرضت رقابة صارمة على المذبحة ، إلى أن نشرت جريدة داقار فى السابع من ديسمبر ١٩٥٦ قصيدة للشاعر ناتان أولترمان ، أفصح فيها عن بعض الحقيقة حيث أنشد ....

بعد أن تكشفت لك رويداً رويداً ...

تفاصيل تلك المذبحة الرهيبة ...

بعد أن انتصب دافعها عارياً أمام عينيك ...

هل راعتك تلك الهوة الرهيبة التى تفصل بين الحقيقة والأكاذيب ...

بعد أن علمت بهذا العمل الوحشى اللاأخلاقى ...

وتفاصيله التى يأبى القلم أن يكتبها ...

ليس بسبب الرقابة الصارمة المفروضة فحسب ...

أيقنت أننى لا ينبغى أن أكتب عن شئ غير هذا العمل الوضيع ...

فلا يمكن أن يقوم مجتمع إنسانى تحدث فيه مثل تلك الوحشية ...

دون أن يثور وجدانه وتسرى فى كيانه رعشة الغضب والخزى ...

لاغتيال النساء والأطفال والعجائز بلا مبرر ...

إن من ارتكب تلك المجزرة لم يكن يخضع لعرف مساء منع التجوال ...

ومنذ تلك الليلة السوداء والجريمة لا تزال قيد التحقيق ...

بينما دم أبرياء كفر قاسم يضيع فى شقوق الأرض الموحلة

وهكذا يصبح شعب إسرائيل شريكاً فى الجريمة ...

صحيح إنها وقعت عشية الحرب وعلى حافة مسرحها

ولكنها وقعت على الطرف الآخر من جبل المناجاة ... جبل الوصايا العشر التى أمرنا الله فيها ألا نقتل ... فقتلنا ...

تفاصيل الجريمة

بأبيات تلك القصيدة ، بدأت خيوط المذبحة تتسرَّب إلى الصحف العالمية ، وتلفت نظر الضمير الإنسانى إلى ما حدث فى القرية العربية المنكودة . لقد بدأ الألوف يشمخار شادمى يضع تعليمات الألوف زفى تسور قائد المنطقة العسكرية الوسطى ، موضع التنفيذ لتأمين عدوان إسرائيل على مصر ، والمحافظة على هدوء القرى العربية بقلب إسرائيل .

وطلب شادمى من تسور أن يطلق يده لفرض منع التجول ؛ فأعطاه كل الصلاحيات ليفعل ما يراه مناسبًا . وعند الظهر دعى شادمى القائد ملينكى إلى مقر قيادته ، وشدد عليه بضرورة فرض منع التجول ، وبقاء السكان العرب داخل منازلهم اعتباراً من الساعة الخامسة مساء حتى السادسة صباحًا .

ثم أكد عليه أن يكون منع التجول حازمًا ، وألا يتردد فى قتل أى عربى ، يخالف هذا الأمر ... ثم أضاف مبتسماً ... "ولا تنس أن قتلهم أفضل من الزج بهم فى معسكر الاعتقال وما يترتب عليه من أعباء ".

وسأل ملينكى ... وماذا عمن يعود منهم إلى قريته ولا يعلم بمنع التجول ... فرد شادمى ..." فلتتخطفه الشياطين ... فليس للعواطف الإنسانية مكان لذلك ."

الموت خير دواء

وعاد ملينكى - وترجمة اسمه " الصغير الوديع " - إلى موقعه ؛ حيث جمع مرؤوسيه وأصدر لهم أوامره ، التى نصت على إطلاق النار على كل عربى ، يوجد خارج منزله بعد الخامسة عصراً ... وألا تجرى اعتقالات اقتصاداً فى التكاليف.

وأعلن ملينكى أن مخاتير القرى سوف يُعلَنون بحظر التجول فى الرابعة والنصف ، فتساءل مرؤوسوه ..." وماذا نفعل بالمصابين ؟ " فأجابه " لا تهتم بهم فالموت خير دواء لهم ."

ثم تساءل آخر ... " وماذا نفعل بالنساء والأطفال ؟ " فأجابه ملينكى ... " فليرحمهم الله ."

ووقع ملينكى أمر العمليات بمداد أحمر ، ثم خرج المرؤوسون إلى القرى المجاورة ليخطروا مخاتيرها بحظر التجول ... وكانت الساعة وقتذاك قد تجاوزت الرابعة والنصف من عصر ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ .

وبمجرد أن وصل الملازم دهان كفر قاسم ، حاصرها بجنوده ، وشدد عليهم الأمر بإطلاق النار على كل عربى يخالف منع التجول رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً . ثم قسم مجموعته إلى عدة أقسام من ٣ - ٤ جنود ، وزودهم بالمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية والبازوكا والبنادق ، وتمركز كل قسم فوق ربوة ، تسيطر على مداخل القرية .

. . . ووضع الملازم دهّان
كل قسم فوق ربوة تسيطر على كفر قاسم
. . .

وربض الرقيب شالوم عوفر وجنديان معه عند المدخل الغربى للقرية فوق مرتفع ، يسيطر على الطريق القادم من الغرب ، بينما ربض العريف جبرائيل عوليال ، وثلاثة جنود عند المدخل الشرقى ، ومعهم قاذف بازوكا .

أما الملازم دهان وجماعته المسلحة بالرشاشات العوزى والبنادق والقنابل اليدوية والخناجر ، فقد شكلوا دورية سيارة تطوف حول القرية . وجاء رجل من أقصى القرية يجرى نحو دهان . . . وعندما اقترب منه ظهر أنه مختار كفر قاسم ، وديع أحمد صرصور . . . وراح يخاطبه وهو يلهث . . . أيها الملازم إن لنا ٤٠٠ من أبنائنا يعملون فى الحقول والمصانع فى بتاح تكفا وعوسفية ويافا وغيرها . . . والساعة الآن الخامسة إلا الثلث ، ولا سبيل لإعلامهم بمنع التجول . . . فدعهم يمرون بسلام ليدخلوا بيتوهم .

قتل جماعى

واتسعت الابتسامة الصفراء على شفتى دهان ، وهو يعد المختار صرصور بأنه سيتركهم يمرون . . . ثم تمتم بصوت خفيض . . . " قطعاً . . . سوف يمرون ولكن إلى الدار الآخرة . "

وانصرف صرصور إلى بيته ، والشك يكاد يقتله . وعندما أشارت عقارب الساعة إلى الخامسة بدأت طلائع الفلاحين والعمال تظهر عند مشارف القرية . . . ولم يكن يشغل ذهن أى منهم ساعتها سوى دفء البيت وطيب الطعام بعد عمل يوم شاق . . . فلم ينتبهوا إلا وصوت الرصاص يحصد جموعهم .

وفيما بين الخامسة والسادسة مساء ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ، اغتال الملازم دهّان وعصابته ٤٩ عربياً أعزل من السلاح بأعصاب باردة وقسوة بالغة ·

وكان ممن اغتالهم دهّان وعصابته سبعة أولاد وتسعة صبايا . . .

وكان من بين الشهداء ٤٣ اغتالهم دهّان وعصابته عند المدخل الغربى للقرية ، سبعة أولاد وتسعة صبايا فى عمر الزهور ، وأربعة عشر كهلاً تجاوز خمسة منهم السادسة والستين . . . كانت جريمتهم أن خرجوا فى الصباح الباكر لطلب الرزق ؛ فحصدتهم بنادق ورشاشات شادمى وجنوده عند المساء ؛ ليضمنوا السرية لخطة قادش . . .

وعلى الطرف الآخر من المسرح ، قرب جبل المناجاة الذى نزل عليه أول الوصايا العشر ، تأمر موسى عليه السلام وقومه بألا يقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق - كانت الحوامات الست عشرة تسقط ٣٩٥ جندياً فوق صدر الحيطان ليبدأ العدوان الثلاثى على مصر ·

وخيم ستار كثيف على المجزرة ، حتى ظهرت قصيدة ناتان اولترمان فى جريدة **داڤار** فى ١٧ ديسمبر ١٩٥٦ تقول :

إن دم أبرياء كفر قاسم يشق الوادى ويضيع فى شقوق الأرض الموحلة ...

دم الشهيد فتحى عثمان ذى الاثنى عشر ربيعاً ، ودم الشهيد رياض حمدان ذى الثمانى سنوات ، ودم الأختين رشيقة ولطيفة اللتين سقطتا ، وهما تحتضنان بعضهما ، وبنتى العم فاطمة وزهرية وعمر الأربع لا يتجاوز ١٤ سنة ، ودم العجوز حلوة محمد بدير - ٦٠ سنة ، والشيخ سليم أحمد بشير - ٦٩ سنة - الذى صرخ فيه ملينكى قائلاً ... " انتصب حتى لا تضيع فيك رصاصاتى هباء " ، ودم الأرملة هنية التى أطارت رصاصات الملازم دهان جزءاً من جمجمتها ، فلما وقعت صريعة تتخبط فى دمائها ، ركعت جنبها طفلتها اليتيمة صباح ، وهى تحاول عبثاً أن توقف نزيف الدم الذى ينفجر من قمة رأس أمها ... ودم شهداء كفر قاسم الذكى الذى تسرب تلك الليلة ، وضاع فى شقوق الأرض الموحلة .

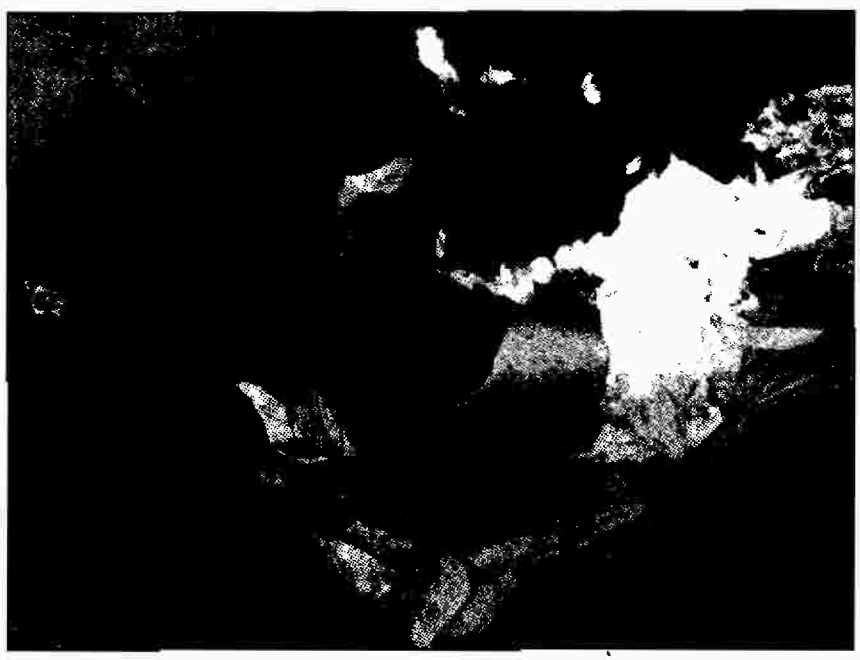

« إن دم شهداء كفر قاسم
ضاع فى شقوق الأرض الموحلة »
الشاعر الإسرائيلى ناتان أولترمان

خمسون شيكل مع إيقاف التنفيذ

وثار الرأى العام العالمى يطالب بالقصاص . . . وتحت إلحاحه ، اضطرت الأركان العامة أن تقدم المجرمين للمحاكمة . . . ولكن على مضض . وخذل شادمى ملينكى ودهان ليفلت بجلده ، فأقسم أنه لم يرخص لهم إطلاق الرصاص لقتل الأهالى العرب . . . وصرخ دهان فى وجهه . . . " الآن تلبس جلد الأرنب المذعور ، وكنت عصر ذلك اليوم تختال كالأسد الهصور ؟ " واستمر عرض القضية عامين كاملين ، حتى صدر الحكم بسجن ملينكى ١٧ عاماً ، ودهان ١٥ عاماً ، وبراءة باقى القتلة والسفاح الأكبر شادمى . إلا أن محكمة الاستئناف وجدت فى ذلك الحكم قسوة ينبغى تخفيفها إلى ١٤ سنة لمليكنى ، و١٠ سنوات لدهان ، ثم جاء دور موشيه ديّان ليصدق على الحكم فخفضه بدوره إلى ١٠ و ٨ سنوات .

وأدلى رئيس الدولة بدلوه فى مسابقة التخفيف ؛ فجعل السجن ٥ سنوات لكل من القاتلين . . . أفلم يسبق له أن أعلن فى خطابه يوم إقامة دولة إسرائيل فى ١٥ مايو ١٩٤٨ . . «بأن العالم سوف يحكم على إسرائيل بمقدار تمسكها بالعدالة وموازين القيم الإنسانية».

ولم تقف المهزلة عند هذا الحد ، إذ وجدت لجنة مراجعة الأحكام الصادرة بالسجن تعسفاً يجب رفعه ، فعدلت الحكم على ملينكى ودهّان ليصبح غرامة . . . خمسين شيكل - أى بواقع شيكل واحد لكل قتيل تقريباً - وخشية أن يكون فى هذا الحكم إجحافاً بالرجلين فقد أمرت بوقف تنفيذ الغرامة . . . فضاع دم شهداء كفر قاسم فى شقوق الأرض الموحلة ، وأرسل الجنرال بيرنز إلى الدكتور همر شولد سكرتير عام الأمم المتحدة يقول له . . . « لقد أثقلت إسرائيل ميزانها بدماء الضحايا العرب » .

. . لقد أثقلت إسرائيل ميزانها
بدماء الضحايا العرب . . .
الجنرال الكندى إدسون بيرنز

توثيق الفصل العاشر

(١) المصدر السابق : مذكرات آرييل شارون ، ص ١٨٥ .

(٢) Op.Cit. : The Twice Fought War, p. 637–641.

(٣) مجلة بمحانبة ، عدد ١٣ أكتوبر ١٩٥٧ .

(٤) المصدر السابق : يوميات معركة سيناء ، ص ١٢ - ١٥ .
المصدر السابق ، دار المحفوظات المركزية العسكرية : الملف رقم ٣٥٤/ ٤ ، خطة الدفاع عن خليج العقبة عام ١٩٥٦ .

(٥) Op.Cit. : Story of Life, p. 213.

(٦) وأيضاً : المصدر السابق : يوميات معركة سيناء ، ص ٥٠٢ .
وأيضاً : المصدر السابق : الحروب العربية الإسرائيلية : ١٩٤٨-١٩٨٢ ، ص ١٥٩ - ١٦٢ .

(٧) Op.Cit. : The Twice Fought War, p. 592.
وأيضاً : Op.Cit. : Elusive Victory, pp. 194–195.
وأيضاً : المصدر السابق : يوميات معركة سيناء ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٨) Op.Cit. : Elusive Victory, pp. 194–195.
وأيضاً : المصدر السابق : الحروب العربية الإسرائيلية ١٩٤٨-١٩٨٢ ، ص ١٥٩ - ١٦٢ .

(٩) Ibid.
وأيضاً : المصدر نفسه ، الصفحات نفسها .

(١٠) Ibid.
وأيضاً : المصدر نفسه ، الصفحات نفسها .

(١١) Ibid.
وأيضًا : المصدر نفسه ، الصفحات نفسها .
وأيضًا : المصدر السابق : حرب العدوان الثلاثى على مصر فى خريف ١٩٥٦ ، الجزء الثانى ، المجلد الثانى ، ص ٤٥-٤٧ .

(١٢) Op.Cit. : Story of Life, pp. 211–211.

وأيضًا : المصدر نفسه ، ص ٥٣-٥٤ .

(١٣) Ibid.

وأيضًا : المصدر نفسه ، الصفحات نفسها .

(١٤) المصدر السابق : دار المحفوظات المركزية العسكرية ، تقارير القوات المحاربة عام ١٩٥٦ ، الملف رقم ٦/ ٢١٥١ .

وأيضاً : الإشارة اللاسلكية بتاريخ الساعة الحادية عشرة و ٤٥ دقيقة صباح ٤/ ١١/ ١٩٥٦ ، المرسلة من القائمقام رؤوف محفوظ زكى إلى القيادة العامة بالقاهرة .

وأيضاً : Op.Cit. : Elusive Victory, pp. 198–200.

وأيضاً : Op.Cit. : The Twice Fought War, 5. 594–595.

وأيضاً : المصدر السابق : حرب العدوان الثلاثى على مصر فى خريف ١٩٥٦ ، الجزء الثانى ، المجلد الثانى ، ص ٥١-٥٥ .

وأيضاً : المصدر السابق : الحروب العربية الإسرائيلية ١٩٤٨-١٩٨٢ ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

(١٥) المصدر السابق : دار المحفوظات المركزية العسكرية : الملف رقم ٣٥٤/ ٤ ، خطة الدفاع عن خليج العقبة عام ١٩٥٦ .

المصدر السابق : دار المحفوظات المركزية العسكرية ، تقارير القوات المحاربة عام ١٩٥٦ ، الملف رقم ٦/ ٢١٥١ .

وأيضاً : المصدر السابق : حرب العدوان الثلاثى على مصر فى خريف ١٩٥٦ ، الجزء الثانى ، المجلد الثانى ، ص ٤١ .

وأيضاً : المصدر السابق : يوميات معركة سيناء ، ص ١٩٥-١٩٦ . وقد ذكر الجنرال دايّان أن الطائرة التى أسقطت كانت من طراز المستير ، وأن الأخرى نجحت رغم إصابتها فى العودة إلى قاعدتها .

(١٦) المصدر نفسه .

وأيضاً : المصدر نفسه .

وأيضاً : المصدر نفسه ، ص ٤١ .

(١٧) الإشارة اللاسلكية بتاريخ الساعة التاسعة مساء يوم ٣/١١/١٩٥٦ ، المرسلة من القائمقام رؤوف محفوظ زكى إلى القيادة العامة بالقاهرة ، ونصها كالآتى : « طائراتنا ضربت مدمرة بريطانية أمام رأس محمد قبل آخر ضوء اليوم ، قوات العقبة تشكركم تحيا مصر » بالملف رقم ٣٧/٥٧ ، تقارير القوات المحاربة عام ١٩٥٦ .

وأيضاً : Op.Cit. : The Twice Fought War, p. 594.

(١٨) المصدر السابق : حرب العدوان الثلاثى على مصر فى خريف ١٩٥٦ ، الجزء الثانى ، المجلد الثانى ، ص ٤٢ - ٤٥ .

(١٩) المصدر نفسه ، الصفحات نفسها .

(٢٠) المصدر السابق : دار المحفوظات المركزية العسكرية ، تقارير القوات المحاربة عام ١٩٥٦ ، الملف رقم ٦/٢١٥١ .

وأيضاً : المصدر السابق : حرب العدوان الثلاثى على مصر فى خريف ١٩٥٦ ، الجزء الثانى ، المجلد الثانى ، ص ٤٧-٥١ .

وأيضاً : Op.Cit. : The Twice Fought War, p. 594–595.

(٢١) المصدر السابق : حرب العدوان الثلاثى على مصر فى خريف ١٩٥٦ ، الجزء الثانى ، المجلد الثانى ، ص ٥١ - ٥٢ .

(٢٢) كان نص إشارة القائد العام القائمقام رؤوف محفوظ زكى كالآتى : « أقدر منك ومن جنودك البطولة والإقدام ، إذا لم تستطع الاستمرار حتى أول ضوء ، فإنى آمرك أن تسلم . تحياتى » . وقد استلمها القائمقام رؤوف فى الساعة العاشرة والربع مساء ٤ نوفمبر ١٩٥٦ ، المصدر السابق ، الملف رقم ٦/٢١٥١ .

(٢٣) المصدر السابق : حرب العدوان الثلاثى على مصر فى خريف ١٩٥٦ ، الجزء الثانى ، المجلد الثانى ، ص ٥٢ - ٥٣ .

(٢٤) Op.Cit. : Elusive Victory, pp. 1991.

(٢٥) المصدر السابق : يوميات معركة سيناء ، ص ٢٠٣ - ٢١٢ .

(٢٦) المصدر نفسه ، ص ٢٠٤ ، حيث يقول الجنرال دايان في الفقرة الثانية من تلك الصفحة : « لو فتح علينا الجنود المصريون المنسحبون من شرم الشيخ نيرانهم لجعلتنا طلقاتهم كالمنخل » .

(٢٧) المصدر السابق : حرب العدوان الثلاثي على مصر في خريف ١٩٥٦ ، الجزء الثاني ، المجلد الثاني ، ص ٥٥ .

وأيضًا المصدر السابق : يوميات معركة سيناء ، ص ٢١٢ ، حيث يذكر الجنرال دايان في السطر الأخير أن دفاعات شرم الشيخ سقطت في الساعة التاسعة والنصف صباحاً ، بينما يذكر كتاب حرب العدوان الثلاثي أنها سقطت في التاسعة صباحاً .

(٢٨) المصدر السابق : يوميات معركة سيناء ، ص ٢١٣ .

(٢٩) المصدر السابق : حرب العدوان الثلاثي على مصر في خريف ١٩٥٦ ، الجزء الثاني ، المجلد الثاني ، ص ٥٤ .

وأيضًا : المصدر السابق : يوميات معركة سيناء ، ص ٢١٢ .

(٣٠) المصدر نفسه ، ص ٥٥

(٣١) المصدر السابق : يوميات معركة سيناء ، ص ٢١٣ .

وأيضاً : Op.Cit. : The Twice Fought War, p. 639.

(٣٢) Op.Cit. : The Twice Fought War, p. 589.

(٣٣) جريدة ها آرتس ، عدد ٩ نوفمبر ١٩٥٦ ، وقد ذكرت ضمن النعى أن عمره عند وفاته كان ٣٣ سنة .